

الخالدون العرب

أسد البحار

ابن ماجد

رشدي صالح


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اسد البحار

الطبعة الاولى
تشرين الثاني (نو فمبر) ١٩٧٤

رشدي صالح

أسد البحار

ابن ماجد

دار القدس
بناية مكرزل - شارع بشارة الخوري
تلفون ٢٩١٤١١ - ص.ب ١١٢٤٨٩ - بيروت، لبنان
برقياً مقدسبرس

صمم الغلاف
الفنان حسين بيكار
والصور
الفنانة إلهام قندلفت

ملامح من اسد البحار

●● « الفاتحة لابن ماجد » ... هي الدعاء الذي يرتفع حتى اليـــوم في عدن وموانىء الجنوب العربي ، مع انــه قد مضت مئات السنين على موت ابن ماجد اسد البحار .

●● كان اسمه شهاب الدين احمد وقد ولد في قرية ظفار على ساحل عمان من عائلـــة عربية خالصة عاشت اهوال البحر ، وعرفت اسراره ، وشهد نشاطه وشجاعته النصف الاول من القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر . وقد عاش اكثر من سبعين سنة .

●● قام برحلاته العظمـــى في بحـــار الهند والبحر الاحمر والخليج العربي والمحيط وكأنه يقوم بغزوات رائعة من اجل الحضارة ، بينما كانت حركة النهضة قد تفتحت في اوروبا .

●● قاد سفينة الملاح البرتغالي الشهير فاسكو دي جاما من ساحل افريقيا الى الهند .

●● كان يقول لبحارته دائما اذا ركبتم البحر ، فالتزموا بالطهارة لانكم ضيوف على الله عز وجل فلا تغفلوا عن ذكره .

●● اكتشفته اوروبا في القرن العشرين ، واكتشف هو الكثير من اسرار البحر في القرن الخامس عشر والسادس عشر ...

●● شخصيته القوية الطاهرة ، شخصية عبقري ، لا يتكرر ، وشجاع اقتحم اخطر الاهوال .

●● عندما تدخل السفن ميناء ماليندي يشاهد ركابها تمثالا مهيبا لاعظم بحار عربي واجه الاخطار ووضع اساس علم البحار منذ مئات السنين وهو شهاب الدين بن ماجد المعروف بأسد البحار .

●● ويردد بحارة السفن الشراعية اسمه في مناطق مختلفة من سواحل شرق افريقيا ، وجنوب شبه الجزيرة وبحر الهند حتى الآن .

●● واول مؤرخ عربي تحدث عن ابن ماجد هو قطب الدين النهرواني وذلك في كتابه ((البرق اليماني في الفتح العثماني)) الموضوع عام ١٥٧٧ ميلادية .

●● كانت اوروبا تجهله الى ان اكتشف المستشرق الفرنسي جبرييل فران بعض كتبه

المخطوطة في مكتبة باريس وكان ذلك من ٤٥ سنة .

●● اهتم به المستشرفون وفي مقدمنهم ديسه سوسير السويسري وشوموتسكي الروسي ، وغيرهما من علمـــاء الدراسات الشرقية في اوروبا واميركـــا .

●● يعتبر ابن ماجد مؤسس علم البحار كما يعتبر ابن خلدون مؤسس علم العمران .

●● ترك ١٩ مؤلفا منها ((كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعـــــد)) والارجوزة البحرية التي تقع في ١٠٨٣ بيتا .

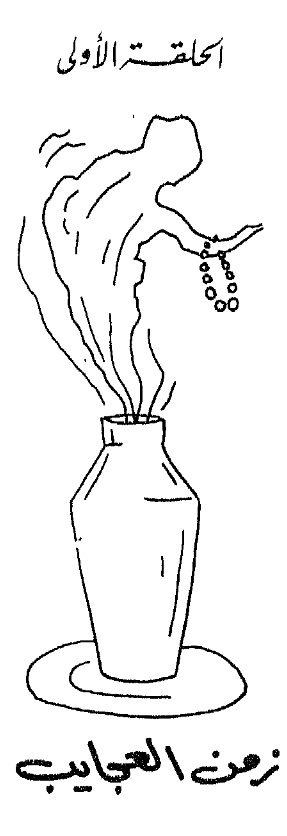
●● كان اول من قسم البوصلة البحرية الى ٣٢ درجـــة .

●● من اشهر الملاحين الذين عرفوا اسرار البحر الاحمر ، والخليـــج [illegible] والمحيط الهندي .

●● اكرم تقدير له هو ان البحارة ما يزالون يرفعون ايديهم نحو السماء في بحار الجنوب ويقولون دائما ((الفاتحة لابن ماجد)) .



الحلقة الأولى



زمن العجايب

كان ذلك هو زمن العجائب في كل شيء ٠!
وكان ايضا زمن الرحلات البحرية الخطيرة ، والاهوال الجسيمة وزمن البحارة الشجعان ، وزمن اللصوص والقرصان وكانت وحوش البحر ، اكثر من وحوش البر ٠٠! وكانت السفن راسية منذ مدة في الميناء الواقع على ساحل بحر الاهوال ، تنتظر ان تتحرك الرياح من الجهة المواتية ٠٠! واذا تحركت الرياح ، وملأت اشرعة السفن ، فسوف يقتحم البحارة اهوال البحر من جديد ٠

في الصباح الباكر ، من اليـــوم العاشر ، من شهر مايو ...
جلس اربعة ملاحين ، عند البوابة الجنوبية الكبيرة على الطريـــق بين الميناء وداخل البر ..!

وكان الاربعة ، يستطلعون « الغبب » وينظرون الى السماء وامواج البحر ورمال الطريق .

***

وقال بحار مسحوب الوجه واسمه عبيد الله :

ــ اذا جاء الطائر الازرق الكبير من هذه الناحية هبــت بعده الريح المواتية ! وسافرنا هذا اليوم !.... واذا جاء الطائر الازرق من هذه الناحية فلن نسافر قبل شهر ... !

وكان ملاح اخر طويل الجسم ، يحمـــل وجهه آثار ضربة سيف ، واسمه ابو حامد ، يقول للمرة العاشرة : .

ــ واذا كان اول رجل يدخل هذه البوابة اعرج او اعمى فستأتي بعده ، عواصف واهوال .. فالاعرج مشئوم والاعمى

مشئوم ... وربما كان الاعرج قرصانا قد جاء يتجسس على اخبار السفن المسافرة المحملة بالفلفل والذهب والعاج وقماش الحرير !.

وكان « الربان » صامتا ، لا يشترك في الحديث ، فما اكثر ما سمع هذا الكلام من قبل !

لقد كان منصرفا الى مراقبة حركـــــة الامواج ، وارتفاعها وانخفاضها .. ! وكان يفكر مشفقا ، في انه سيأخذ معه ولده « ابن ماجد » في رحلة قاسية بالنسبة لصبي بلغ الخامسة عشره لا يزيد !

وكان ابن ماجد قد شغل اباه الربان كما لم يشغله ابن اخر.. ربما لانه ركب البحر معه منذ خمس سنوات ... وواجه المخاطـــر معه ، عندما شقت صخور المرجان صدر السفينة ذات مرة وكـــاد بحارتها ان يغرقوا جميعا !...

يومها استطـــاع الطفـــل الصغير ان يحول اتجاه « الدفة » بعيدا عن شعاب المرجان ! ونجا الملاحون وقالوا عنه انــــه شبل شجـــاع !

وربما كان السبب ، ان في عيني الصبي الصغير ، بريقا غريبا، يخطف القلوب خطفـــا !

وكانت عيناه تريان اكثر مما ترى عيون الملاحين الذين عاشوا في البحر سنوات طويلة !

ولعل السبب ان وجه « ابن ماجد » يذكر اباه الربان ، بوجه شيوخه الذين علموه علم البحر وجعلوه رئيسا على الملاحين .

وقد كان الربان مفتونا بالرجال الذين علموه ركوب البحـــر وكان مفتونا ايضا بالاسد ملك الغابات !!

ولسبب غير متوقع ، سأل الربان رجاله ضاحكا :

ـــ وماذا لو كان اول قادم علينا وحشا كاسرا ؟

قال ابو حامـــد :

ـــ سيكون بشيرا بالخير ! لانه سيأكل هذا الثعلب !

واشار بيده الى الملاح الثالث ، الذي كان ضعيف الجسم .

اشعث اللحية ، اصفر العينين ، وكانوا يسمونه « الثعلب » لانه كان ماكرا خبيثا ، مخادعا !

قال الربان :

ـ واذا كان القادم علينا هو الاسد !

قال الثعلب :

ـ لن يصل الي ابدا !

ـ لماذا ؟

ـ لان الله اعطاني ساقين اسرع من الريح !

وضحك الثعلب ، بصوته الرفيع الغريب . . . فلم تكن في هذا المكان ، وحوش كاسرة ، بل كان فيه صمت هائل ، يترامى على اتساع الصحراء وكانت امواج البحر نفسها ، تتسكع واحدة وراء واحدة في كسل شديد . . .!

وقال الربان :

ـ البحر في هذه الايام كالرجل العجوز الذي فقد كل قوة وشهوة ..! ولا اظن اننا سنسافر قبل ان تمضي ايام واسابيع !

ورفع الثعلب صوته مبتهجا ، فقد اثارته كلمات الربان عن شيخوخة البحر !

وقال الثعلب وهو يلقى الى الماء بحجر صغير :

ـ هذا الجبار لا يعرف عجز الشيخوخة !

انه يتزوج في كل يوم الف عروس جميلة لقد شاهدت بعيني هاتين اجمل نساء الدنيا ينزلن عاريات الى بحر الجنوب ! فتأخذهن امواج البحر بين الاحضان وشاهدت بعينى هاتين اجمل عرائس البحر ، يطلعن من تحت الماء ويقتربن من السفينة ، وكادت عروس منهن ان تناديني باسمي . . . ولو انها قالت لي : يا ثعلب لذهبت معها الى الاعماق ، وعشت معها عيشة الامراء . . . لكن عرائس البحر ضحكن في وجهي ، وابتعدن عن السفينة لانهن خبيثات !

قال الربان ضاحكا :

ـــ لا بد ان عرائس البحر قد عرفن انك رجل مزواج !

وتفتحت شهية الثعلب اكثر فأكثر ورفع صوته من جديد :

ـــ لست مزواجا .. بل انا رجل يعطى كل مكان حقه ! فاذا بلغت السفينة جزيرة القمر ، تزوجت امرأة من اهلها ، واذا حان موعد السفر طلقتها ! وعندما تصل السفينة الى ميناء عيذاب اتزوج غيرها واطلقها رضاء ومحبة ! واتزوج ثالثة في سرنديب ورابعة في ميناء اخر واظل اتزوج ما شاء لى الله من زواج ! اتعرف لماذا اصنع هذا يا سيدي !

قال الربان :

ـــ لانك ثعلب مزواج !

ـــ بل لانى رجل طاهر يحب ان يقيم صلات القربى بين اهل مينائنا البائسين هؤلاء واهل الموانيء الاخرى المنتشرة في بلاد الله

***

وكان الثعلب ـــ في الحقيقة ـــ مجموعة اعصاب نافرة ، فما كاد جسم غريب يظهر في اخر الطريق حتى صاح :

ـــ انه رجل يمشى كالغراب ! جسمه يرتفع مرة ، وينخفض مرة ! وسنرى اى نذير او بشير يكون هذا القادم من بعيد !

انه ليس اسدا وليس طائر البحر الأزرق ! وليس ـــ فيما اظن ـــ من اهل الميناء !

***

وعندما اقترب الجسم القادم من المكان الذى يجلس فيه الملاحون قال « الثعلب » في فزع :

ـــ انه اعرج .. !

ونفض ثوبه ، يريد ان يعود الى بيته .

واقترب الرجل الاعرج من البوابة والقى السلام على الملاحين .. فرد عليه « الربان » وحده بينما تفرق الملاحون الثلاثة الاخرون ، تاركين وراءهم «الربان» يراقب امواج البحر كما يشاء يرمي بالحجر وراء الحجر ، في الماء ..!

والامواج ما برحت ، تمشي واحدة بعد واحدة في كسل ! والريح ساكنة ! والميناء مزدحم بالسفن الراسية ..!

وخطر للربان ، أن هذا البحر العظيم ، يشبه « الغانيات » .. فهو يعاكس من يحبه،ويهجره طويلا،ثم يعود اليه فاتحا ذراعيه! وتذكر كلمات الملاح الذي يحمل اسم الثعلب :

ـ هذا الجبار لا يعرف الشيخوخة ... انه يتزوج كل يوم من الف حسناء عارية ! ويحتوي في باطنه ، آلاف العرائس الجميلات من بنات الجان !

وقطع تفكيره ، اقتراب خطوات سريعة ، قادمة من الناحية الاخرى ، فأدار الربان رأسه ، وامتلأ وجهه بالحنان ـ فهذا هو ولده « ابن ماجد » قد جاء لاهثا .

قال الربان :

ـ ما الذي استعجلك ؟

قال الصبي :

ـ هل حقا سنسافر اليوم ؟

من قال لك هذا ... ؟ اهي اختك فاطمة مرة اخرى ؟

قال الصبي :

ـ اخبرني الثعلب بهذا ؟

وابتسم الربان :

ـ وتصدق الثعلب .؟!.. ماذا قال لك بالضبط !

ـ قال انك يا سيدي ستأمر بالسفر لان رجلا تحبه قد دخل المدينة !

— اي رجل ؟

— الرجل الاعرج .. !

قال الربان ضاحكا :

— هذا عبث ... لن نسافر الا اذا هبت الريح من الجهة المواتية !

— والاعرج ..؟

— مالنا والاعرج .. ؟

— انه في ساحة السوق والناس يقولون عنه انه شؤم !

— هكذا قالوا ! يا للرجل الضعيف من الناس !

قال الصبي :

— شيخي ومعلمي قال لي ان هذا الاعرج ركب سفينة منذ سنتين في بحر الصين ، وبعد ايام قليلة دخلت السفينة في اعصار من نار واحترقت كلها !

امسك الربان بيد الصبي الصغير وهو يقول في هدوء :

— ولماذا لم يحترق الاعرج مع السفينة .. ؟

— لان جسمه من نار ..!

ضحك الربان بصوته العريض الخفيض وراح يربت على راس ابن ماجد ويغمغم :

— ماذا قلنا ؟

انت الان شاب شجاع ولن تخاف شيئا .. ! لا تصدق كل ما تسمعه من شيخك ! ستسافر معي الى بلاد جاوه ! وهناك ستشتري ببغاوات اخرى صفراء وحمراء تتكلم ..!

وستعلمها انت لغة هذا الميناء ... وستسافر معي الى بلاد السند والهند وساحل الزنج وستركب السفينة معي الى شواطىء الذهب والزمرد والياقوت ! ... ان هذه البحار يا بنى ، مملكة الشجعان ! وفيها — حقا — وحوش هائلة ولصوص وقرصان ! ولكن الرجل الشجاع ، لا يخاف شيئا ... ماذا اعدت تلاوته اليوم

مع شيخك من آيات القرآن ..

قــال الصبي :

ـ ســورة طـــه .

ـ واعدت تلاوة السور الاخرى .

ـ اجــل تلــوت الكثـــير .

ـ اقرا سورة طه على مسمعي فهذا الكتاب العظيم اول كتاب يجب ان يحفظه الملاحون .. ! تذكر هذا جيدا يا بني ! ستحفظ القرآن في صدرك في قلبك وسيشرح الله صدرك ويجعلك ملاحــا عظيمــا .

***

وارتفع صوت الصبي يتلو سورة طــه بين يدي ابيه ... والربان يغمض عينيه قليلا ... ويعطى سمعه دائما لصوت ابنه ..

ـ أن ابن ماجد ، يقرأ القرآن كما كان يقراه اشياخه رؤساء البحر ! وان صوته الذي تحول من نبـــرات الطفولة الى ندرات البلوغ ، ينبض فى قلبه ، فهذا الصبى شبل ينمو تحت ظله ، وغدا سيكون الشبل اسدا !

وعندما فرغ ابن ماجد من تلاوة سورة طه قال له ابوه :

ـ وسترى معي أرض فرعون ويوسف .. !!

وكان قلب الربان ، يزقزق باحلام غامضـــة .. ! .. ولو شاهده الملاحون ، وهو يلين ويهش بجوار ابنه ، لانكروا عليـــه سلطانه في السفينة ! فقد كان شديد الحزم ، جافا ، قاسيا . ما ان يركب البحر ... وكان صامتا ، خشنا ، اذا استقر على البر .

وكان كقطعة العجين ، اذا ترك نفسه ، بين يدي ابنه شهاب الديـــن .

وشعر الصبي انه يستطيع ان يطلب من ابيه اي شيء !

وفهم الربان بماذا يشعر الصبي فقال ضاحكا :
ـــ واظنك جئت ـــ في الحقيقة ـــ لاحدثك عن عجائب البحر .؟
فأي عجيبة تريد ان احدثك عنها !
قال ابن ماجد :
ـــ الاقزام .. ؟
قال الربان :
ـــ في جزيرة صلحان ببحار الصين يعيش قوم عراة يشبهون صبيان الزنوج ! وطول كل رجل منهم اربعة اشبار ... وهم يخرجون بالليل من تحت الماء ، ويتسلقون جوانب السفن ويسيرون فيها ، ويبيتون مع ملاحيها وقبل ان تشرق الشمس يعودون الى مساكنهم البعيدة الغريبة !
قال الصبي :
وشاهدتهم يا سيدي ؟؟
ـــ كلا !.. لقد رآهم جدك رؤية العين وتحدث اليهم بلسانهم ..
وسكت الربان قليلا ثم اضاف :
ـــ جدك كان ملاحا عظيما شجاعا .. تذكر انك ابن ملاح ، وحفيد ملاحين وان البحر مملكة اهلك ! وعندما تبلغ سن الرجولة ستكون اميرا على هذه البحار ! فقط تعلم علوم البحر .. وضع الايمان فى قلبك ! واذكر ان البحر طاهر يحب الاطهار وانه جبار ، يحب الشجعان !
قال ابن ماجد :
ـــ ماذا عن جبال النار ؟
قال الربان :
ـــ انها حقيقة .. وفي النهار تبدو كلسان هائل من الدخان ، فاذا جاء الليل اصبحت لسانا هائلا من النار !
قال الصبي :

ــ ويخافها الملاحــون !؟

ــ كل خوف ! في بعض الاحيان يخرج منها لسان نار طويل يلتصق بوجه الماء ويجعل البحر يغلي مثل المرجل ، فاذا اخطـأ البحارة واتجهوا بسفينتهم الى ناحية جبل النار حرقتهم النيـران تمامـا !!

ولسبب غامض ، سأل الربان ابنه :

ــ هل ستخاف اذا رأيتها ؟

ــ لا ادري !

ــ هذا حق ! .. فالبحر مملكة عجيبة ! .. ولا يدري احد متى يخاف البحر ومتى يطمئن اليه .. وانظر كم هو هادىء صامت هذا البحر هنا ! لكنه في اماكن اخرى يغلي غليانا شديدا ويحطم السفن ويقذف اشلاءها ، ويقتل الحيتان ويطرحها على الشاطىء ، ويقتلع الصخور والجبال ويرميها هكذا !

والقى الربان بحجر اخر بعيدا ..

قـال الصبـي :

ــ والثعابين التى تنفخ النـار ؟

رد الربـان في هدوء :

ــ لم اشاهدها .. لكني سمعت من شيوخ البحر ان هناك ثعابينا هائلة لها قرون كقرون العنز ، ولها خياشيم كثيرة ، تنفخ منها النار ! .. وهناك حيات هائلة تبلع الحية منها اي رجل لـو ارادت !

قـال الصبي مأخـوذا :

ــ ولماذا يرتفع الماء فى البحر فيغطى على الارض ثم ينخفض وينسحب عنها ..؟

ــ القدماء قالوا ان سبب هذا كله ، ان هناك ملاكا ضخما ، يضع رجله في البحر فيرتفع الماء ثم يرفع رجله من البحر فينخفض الماء ! وهذا هو سبب المد والجزر ! فهل تصدق هذه الحكاية !

قـــال الطفـــل :

ــ لا ادري !

قـــال الربـــان :

ــ ولكنك تعلم ان البحار واسعة جدا .. وانها نمتد حتـــى جبل قاف الواقع في اخر الدنيا . ! فهل تظن ان ملاكا واحدا يستطيع ان يزيد مياه البحر وينقصها ؟

قـــال الطفـــل ؟

ــ ربما كان الملاك في حجم الطائر الذي يفرد جناحيه فيغطى قرص الشمس !

ــ لا اظن ! ولكنى سأعلمك ــ باذن الله ــ كيف تؤثر منازل النجوم والقمر في ملاحة السفن ، وفي مياه البحر !.

واشتدت حرارة الشمس ... وهبـــت الريح من الجهة المواتية !.

وقـــال الربـــان :

ــ الان ! اسرع الى البيـــت !.

ــ قل لاهل البيت اني راحل هذا اليوم ! وارجع الى المبناء علـــى الفـــور .

***

ونشطت الحركة فى الميناء ! وتحول الربان الى كتلة مـــن الاعصاب المتوترة ، والصرخات المتوالية ، وقذائف الشتائم والاوامر التي راح يلقيها ويصدرها هناك ! ويقول للصبي عندما عاد :

ــ ثكلتك امك ! اقفز الى مكان الدفة وقف الى جوار البحار المسك بها ؟ واياكَ ان تغمض عينيكَ !.

وصاح المنادي من فوق سارية السفينة :

على التجار والبحارة والمسافرين فى سفينة « الليث المنتصر

باذن الله » ان يركبوها .

وكانت السفينة محملة بالاخشاب القادمة من ساحل افريقيا، وصناديق النسيج المقصب بالذهب القادمه من دمياط ، وكان في بيت الدفة صندوق صغير ثقيل قال عنه الربان لابنه شهاب الدين :

ـــ افتح عينيك جيدا على هذا الصندوق .

وكان ابن ماجد قد تعلم كيف يراقب الاشياء الثمينة ، وكيف يساعد الملاح الممسك بالدفة . وكان على السفينة مائة رجل بين ملاح وتاجر ومقاتل فقد كانت كل سفينة تحمل معها الرجال الذين يحرسونها من القرصان .

***

وبينما كان « الليث المنتصر » توشك ان تتحرك خارجة من الميناء ، كانت سفينة اخرى قادمة من البحر ، قد وصلت الى الشاطىء ، ومن فوق ساريتها صاح المنادي :

ـــ رحم الله كل من قال الله اكبر !. وتجاوبت الاصوات في كل مكان :

ـــ الله اكبر الله اكبر !

وتواثب البحارة من هذه السفينة وخاضوا في الماء ، وسجد بعضهم على الارض يقبلونها ... وانطلق اخرون يقفزون هنا وهناك فقد وصلت سفينتهم سالمة من بحر الاهوال !

ونادى المنادي فوق سفينة « الليث المنتصر » :

الفاتحة !

وهمهم الجميع يقرأون فاتحة الكتاب وقبل ان تنطلق المجاديف تضرب صفحة البحر ! تعلق الرجل الاعرج بأحد حبال السفينة ، واخذ يتسلق الحبل ، صائحا :

ـــ النجدة يا امير السفينة ! خذني معك !.

قال الملاح الذي يمسك بالدفة :
الاعرج ! لن نأخذه ابدا !
وقـــال اخـــرون :
ـــ لن يسافر معنا الغـــراب الاعـــرج ! انه شؤم !
وصاح الاعرج كالغريـــق :
ـــ خذني معك يا امير البحر ! فورائي بنات صغيرات ينتظرن عودتي ! الرحمة يا امير البحر !
قـــال الربـــان :
ـــ ارفعوه الى ظهر السفينـــة !
ـــ ولكنه مشئوم !
ـــ هو رجل محتاج لنجدتنا ! سيركب السفينة معنا ! ارفع صوتك ايها المنادي بألا لا اله الا الله وحده !
وضربت المجاديف صفحة الماء مرة والف مرة .
ودفعت السفينة بعيدا عن الشاطىء . وقال الملاح الممسك بالدفـــة :
ـــ ستقـــع الكارثـــة !!
ولكن الرياح موانية ، والسفينة تجري بسرعـــة في اتجاهها الصحيح ! والشاطىء يبتعد حتى يختفي تماما وشهاب الديـــن الصغير ، يمسك بحبل الدفة ، وفتح عينيه جيدا على الشمس . .
انها وجه جميل ، في سماء جميلة !
والطائر الازرق يأتي من هنا ومن هناك متجها الى الشاطىء !
والريح مواتية لا تزال ، والشمس تميل الى الغروب !

***

وفجأة صاح البحار الممسك بالدفة :
ـــ حذار ! من سمك القرش !
فقد اخذت عشرات وآحاد من وحش القرش تقفز حـــــول السفينـــة !
وصاح البحار الممسك بالدفة :
ـــ الاعرج المشئـــوم !!

وقفز حيوان قرش الى اعلى من حافة السفينة وسقط في الماء بدون ان يلتقط شيئا !!

قال الربان بصوت مرتفع :

ـ اضربوا المجاديف بشدة ..!

واسرعت المجاديف ، واندفعت السفينه اكثر فأكثر : ووحش القرش يطاردها ! ومال قرص الشمس الى لجة الماء ناحية الغرب !!

وفجأة ، سقط شيء غريب ! وارتفعت صرخة مكتومة !

لقد سقط احد الملاحين الى الماء وقبل ان يفيق ابن ماجد من دهشته .

قال بحار عجوز ، وهو يقفز بعيدا عن حافة السفينة :

ـ لقد وقع الرجل بين اسماك القرش !

وصاح الربان :

ـ القوا اليه بالحبل !

واغمض الطفل عينيه قليلا ، بينما كان الهواء مشحونا ، بالصراخ ، والاصوات المكتومة ! وبينما كانت وحوش القرش تطارد السفينة وتقفز على جوانبها والرياح قد غيرت اتجاهها ، واخذت ترفع السفينة ، وترميها وتدفعها هنا ، وتدفعها هناك ، كان قرص الشمس الغارب قد جعل لون الافق دمويا وانفجر الانين الفظيع من اكثر من ناحية من السفينة !

واشتد الهرج والربان يصيح :

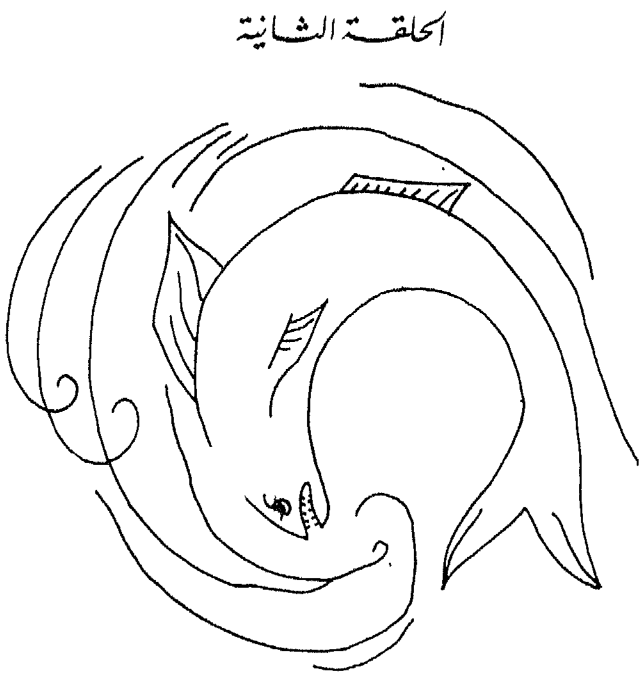
ـ كل رجل مكانه !

ولكن خمسة من البحارة هجموا على الرجل الاعرج وامسكوا به من قدميه ويديه .. ليرموا به في الماء ليأكله سمك القرش !

وتحرك الصبي ابن ماجد من مكانه وتشبث بالاعرج ! وراح جسمه الصغير ، يترنح معه ! هنا .. وهناك ! والبحارة يدفعون الرجل الاعرج دفعا الى حافة السفينة والرجل الاعرج يقاوم بكل قوته وارتفع الانين عاليا ! وفوق اصوات الرجال ! ارتفع صوت مخيف قادم من ناحية سمك القرش !.. فقد دخلت السفينة بركابها في منطقة الاهوال ...!



الحلقة الثانية



صراع مع سمك القرش

نخطىء جميعا ، عندما نسمي الكوكب الذي نعيش فيه باسم ((الكـــرة الارضية ..!)) انه ــ في الحقيقة ــ ((كرة مائيـــة)) ... فالمياه تغطي اكثر من ٧٠ في المائة من سطحه، واليابسة تغطي اقل من ٣٠ في المائة فقط ..! وفي زمن اسد البحار ، حدثت تلك الرحلات الخطيرة ، التي فتحت طرق المواصــــلات والتجارة ، والمعرفة امام البشرية كلها ..! وكان ذلك هو زمـــن الصراع المرير في كـــل ناحية ! وزمن الوحوش البحرية المهولة ، والملاحين الشجعان وزمن القصص النـــادرة التي كانت تحـــــدث بالفعل ثم تتحول الـــى اساطـــير ..!

اندفعت اسماك القرش ، كالوحوش المجنونة ، صوب الملاح الذي سقط من السفينة ..!

وكانت الشمس الغاربة قد ارسلت في الافق نورها ، الذي انعكس بألوان حزينة ، تودع اول يوم تطويه السفينة في رحلة الاهوال ..

***

وبالرغم من الهرج الذي انتشر في انحاء السفينة ، فقد كان الملاحون يعرفون ان هذه الاسماك التى هاجمت البحار الغريق ، من اخطر وحوش البحر ..!

وكانت الاسماك ، تندفع وتتواثب ، وتهاجم ، فتظهر الوانها البيضاء والزرقاء ، والصفراء بلون الليمون !

وكان بعضها يتوقف احيانا ، فيظهر ان حجمه يصل الى حجم الرجل الطويل ! وان بينها اسماكا فارعة يمتد طولها الى الثلاثين ذراعا !

وعرف الملاحون من اول نظرة ان هذه الاسماك من وحوش البحر التي تأكل اللحوم البشرية .

وكان واضحا للملاحين ان السمكة الضخمة التي يشبه راسها شكل المطرقة هي اشد الاسماك خبثا وشراسة واندفاعا !

وكانت الاسماك تقفز فوق سطح الماء ، وتقع فيه ، وتنطلق بسرعة هائلة ..

وكان اصطدام اجسامها بالماء يرفع الرذاذ ، ويسقطه فيما يشبه المطر .

وكانت سحابات صغيرة من الزبد ترتفع ايضا فوق اطراف الموج وتطير في كل اتجاه .

وصاح ربان السفينة :

ــ اقذفوا للغريق لوحا من الخشب !

وجاءه الرد من الملاح الضئيل الجسم الذي يسمونه الثعلب :

ــ سيدي الربان ..! اطال الله عمرك لقد اكل الوحش ذراع المسكين .

وكان افتراس سمك القرش لهذا الملاح الغريق ، يجري في مشاهد مفزعة رهيبة ، فأسماك القرش تمزق جثة الملاح الغريق، وتلتهم اجزاء منها وتفترس الجثة بعضمها ولحمها وثيابها !

وبعض هذه الاسماك يتجاذب ساق الملاح الغريق بعد ان بترتها بأسنانها المنشارية ، فكانت سمكة منها تخطف الساق في فمها وتغطس بها ، فتلاحقها سمكة اخرى ، وتقضم قطعة من الساق !

***

وعلى ظهر السفينة كان صراع رهيب اخر يدور في عنف !

كان الملاحون الخائفون قد ظنوا ان الرجل الاعرج الذي ركب

معهم من الميناء هو سبب هذه الكارثة ـ فالاعرج ـ في نظرهم ـ مشئوم !

ونجمع البحارة الخائفون حول الرجل الاعرج ، يضربونه . ويدفعونه الى حافة السفينة ، ليقذفـوه في المـاء ! والاعـرج يستغيـث :

ـ النجدة يا امير السفينة !

وكان شهاب الدين الصغير ، قد تعلق بجسم الرجل الاعرج وراح يدافع عنه ، وينادي على ابيه الربان :

ـ سيدي ! سيقتلون ضيفك !.. الاعرج ضيف السفينة ولن يقتله الملاحـون !

واسرع الربان يفرق الملاحين بضربات يديه ، ويصب عليهم سيلا من شتائمه !

ـ تفرقوا عنه يا ابناء السفاح ..! الصبى سيسقط مع هذا الاعرج في الماء ..!

وزمجر الملاحون ، وهم يتراجعون بعيدا عن الاعرج وصاح فيهم الربان :

ـ حذار ..! فالوحش يهاجم السفينة !

وكان واضحا لشهاب الدين الصغير .. ان السمكـة ذات الراس المخيف هي التى تدبر الهجوم على السفينة ! فقد اقتربت من حافة السفينة ، وتوقفت لحظة ، ثـم دارت حول نفسها ، وغطست في لمح البصر ، وظهرت ملاصقة لحافـة السفينة ! وكانت الاسماك الاخرى تهاجم المجاديف وتقضم اطرافها ! وعندما طفت قطعة من قماش الملاح القتيل ، هاجمتها السمكة الكبيرة ، والتهمت قطعة القماش وقفزت قفزة مفزعة عالية !

***

وتذكر شهاب الدين الصغير كل ما قاله ابوه عن الاسماك

التي تأكل لحم البشر ! فرائحة الدم تثير جنونها ! وطعم اللحم البشري ، يلهب شراهتها .. واهتزاز الماء واضطراب الامواج ، يستفزها ! ولا شيء بعد ذلك يمكن ان يقف في طريقها !

***

لقد عادت تقضم جوانب السفينة مع ان السفينة مصنوعة من خشب السنديان اقوى انواع الخشب .

وامطرها الملاحون بكل ما وصلت اليه ايديهم من اشياء ! وقذفوها بقطع الخشب والاحجار والحديد ! ولكنها كانت تتحرك باسرع من لمح البصر ! وكانت كالنمور الشرسة الهائجة تثب هنا ، وتغطس هناك !

وقد ابتلعت احداها آنية الفخار التي قذفها الملاح الخبيث الذي يسمونه الثعلب !

وخطر لشهاب الدين الصغير ان السمكة طحنت الفخار طحنا بين اسنانها ، فقد كانت قريبة من الدفة ، وكانت تتلمظ .. !

واشتد هجوم اسماك القرش على السفينة ، وصاح الربان وهو يجري هنا ، ويقف هناك :

ــ ارفع صوتك ايها الملعون ! فالوحوش تهاجمنا !

ونادى المنادي من فوق سارية السفينة :

ــ نمور البحر تهاجم السفينة !

واخذ الربان يحرك الملاحين المذعورين بكل وسيلة ! كان يضرب بعضهم بالسوط .. ويدفع اخرين بقبضتيه ، ويجذب الملاحين المتراجعين من قمصانهم وهو يلعن ..

ــ تحركوا يا اولاد السفاح ! كل رجل يحمل سلاحه !

وكان واضحا للملاحين ، ان هجوم سمك القرش المسعور سيشتد كنيران الحريق !

وضج الربان بالنداء :

ـ كل رجل يضرب بسلاحه !

وانتبه الربان ـ فجأة ـ الى ان ابنه شهاب الدين الصغير ، يقف عند الدفة ، فاخترق صفوف الملاحين اليه . وصاح :

ـ وانت ..! بهذه المقرعة الحديدية اضرب الوحش اذا اقترب منك ! اضربه على راسه هكذا ..

وامسك بيد شهاب الدين مشجعا :

ـ هذا هو نمر البحار ! فاضربه بقوة اذا اقترب منك !

وتواثبت الاسماك المجنونة حول السفينة ، تريد ان نفترس من تصل اليه من بحارتها .

***

وكان المقاتلون قد استعدوا بالاقواس والسهام والنفاطة ، واخذوا يجهزون « النار اليونانية » وراح المقاتلون يمطرون السمك بالسهـــام !

لكن الاسماك المفترسة كانت اسرع من السهام ..

وارتفع صوت خائف من احد اركان السفينة :

ـ اوقدوا المشاعل !

وصاح الربان في صوت كضربات السيف :

ـ لا احد غيري يصدر الاوامر !.. اضربوا الوحش « بالنار اليونانية » .

وكان ظلام الليل قد اخذ يجثم بشدة على قلوب الرجال .. وترددت الكلمات :

ـ النار اليونانية ..!

وخرجت السنة النار اليونانية من انابيب وخراطيم صوب مواقع الاسماك المفترسة !

ولكن نمور البحر ، كانت اسرع من لهيب النار ! فغطست في الماء ، وظهرت بعد لحظة على بعد خمسين ذراعا !

وصاح الربان على المنادي :

ـــ علينـــا بالمشاعـــل !

وارتعشت اضواء المشاعل وكأنها خائفـــة مذعورة هـــي الاخرى ! ولم تستطع ان تهزم ظلام الليل ، ووحشة البحر !

وغيرت الريح اتجاهها ، واصبحت ريحا ماكرة لا يعـــرف احد ماذا سيأتي بعدها ..!

واندفع الربان الى اسفل سارية الشراع وهو يسب ويشتم:

ـــ اجمعوا القماش يا اولاد اللئام !

***

وكان احد الملاحين الخائفين ، قد تسلق سارية الشراع ، والتصق بالخشب والقماش ، فأصبح كالتمثال المسخوط !

وضربه الربان بالسوط على ساقيه العاريتين وزمجر :

ـــ انزل ايها الرعديد ..!

لكن كان الخوف قد جفف حلق الملاح المذعور ، فلم يعـــد يسمع ، ولم يعد يستطيع ان ينطق !

وتجمدت اطرافه من الفزع فزاد التصاقا بخشب السارية !

وكان التحفز قد شق صدور الملاحين الشجعان ..

وشن النمر .. ووراءه افواج سمك القرش هجوما ذريعا جديدا على السفينة .

واتخذ الملاحون المقاتلون اماكنهم وراء احمال السفينة من البضائع وكأنهم يقفون وراء المتاريس !

وبدت السفينة كلها كأرض في معركة رهيبة ، تنتظر سفك الدماء !

وصاح الربـــان :

ــ جـــربوا الاجراس ..!

وكان في السفينة اجراس معدنيه كثيرة مشدودة الى حبل يستطيع شهاب الدين ان يحركه من مكانه اذا شاء .

وجذب شهاب الدين حبل الاجراس وارتفع صليلها ! ولكن رنين الاجراس لم يبعث الخوف في الاسماك التى ظلت تطـــارد السفينة في جنون !

ودق ملاحون اخرون على اخشاب السفينة بقطـــع من الحديد .. ولا فائدة ! فأسماك القرش تقضم الحبال والسلاسل الحديدية المعقودة على جانب السفينة !

واطلق المقاتلون وابلا بعد وابل من السهام ..

لكن السهام جميعا .. طاشت في عتمة الليل وضاعت هباء بين الامـــواج .

***

واحس كل ملاح انه اصبح في قبضة الموت ! وانه لا يعرف متى سينقض سمك القرش على ذراعه فيبترها ومتى سيضربـــه ضربة قاتلة بذيله !

وارتد المقاتلون الى الوراء !

وكان الفزع ، اكبر من شجاعة المقاتلين .

وصاح الربان :

من يحمل منكم خنجرا او سيفـــا من سيوف طليطلـــة فليتبعنـــي ..!

وكانت هذه السيوف القصيرة المدببة .. اقوى من السيوف الطويلة المعروفة !

وبدأت النصال والحديد القاتل واسنـــة الحراب ، تلمع في

ايدي الملاحين .

واضاف الربان وهو يتقدم خطوة خطوة الى حافة السفينة :

ــ وخذوا حذركم من ضربات الوحش ! واحذروا ان يحتك بجلده في وجوهكم او اطرافكم العارية .. وتذكروا ان الدم اذا سال منكم فسوف تكون تلك هي النهاية !

***

وكان صوته قد اكتسب برودة سيوف طليطلة ، وشراسة الخناجر القاتلة !

وقفزت السمكة الضخمة ــ بالفعل ــ وسقطت وسط السفينة وملأت فمها بمزعة من كتف احد الملاحين وهي تسقط وسط البحارة ! وزاد جنون الوحش بعد ان ارتوى من دم بشري طازج ..!

واصطكت الكلمات بين اسنان الربان :

ــ اطعنوه في البطن !

وضاعت صرخات الملاح الجريح وسط الضياع ! فلم يعد فوق السفينة ، الا اصوات الصراع المرير ، والموت المرفرف بجناحيه !

ولم يكن فيها مكان لغير اصطدام الاقدام بالخشب ، واضطراب الحركة ، وصرير الاسنان ، وتمزيق اللحم بالخناجر واختلاط هذا كله بشتائم الربان :

ــ اطعنوه في بطنه .. ايها الجبناء ..!

***

وانعقد فوق السفينة والبحر والليل .. صمت رهيب ، هو

صمت القتال الوحشي ، بين الرجال الخائفين ، ونمر البحر الجبار! فالوحش الرهيب لا يموت من طعنات السيوف بل يموت عندما يستنفذ كل حيويته وقوته !

وشعر شهاب الدين الصغير بأن زفرات الرجال ترتفع كأسنان المنشار التي تنشر جذوع الشجر ! وان ظلام الليل ، قد زاد كثيرا ، عما كان .. وان الريح واقفة في مكانها لا تتحرك !

وكان ابوه ، قد تراجع ــ بعد قليل ــ صوب مكانه عند الدفة ، وهو يتنفس بصعوبة ويمسح سيفه في اطراف ثوبه ويغمغم :

ــ الان .. انزحوا بطن السفينة من الماء !

***

وكانت اسماك القرش الباقية قد طردتها الامواج والضجة بعيدا .

وكان شهاب الدين الصغير مأخوذا بهول هذا الصراع العنيف فالرجال يمزقون السمكة « النمر » وكأنهم يفترسونها !

لقد غرسوا حرابا كثيرة في فمها وجوفها ..!

وغرسوا خطافات حديدية في بطنها !

وملأ احد الملاحين حفنته من دمها ، وشرب الدم !

وقال هذا الملاح :

ــ الليلة .. سنأكل لحم النمر !.. انه اشهى طعام على الارض ..

***

ودارت في عيني شهاب الدين كل الاشياء التي شهدها

والاصوات التى سمعها ، وارتعشت في عينيه ، رؤوس الرجال وعمائمهم ، وشراع السفينة ، وامواج البحر ، واخذ عقله يسقط فيما يشبه الظلام .

وكانت رائحة الموت الثقيلة تركب الريح وتسد حلقه ، واهتزت يده وهي تمسك بحبل الدفة ! وشعر بأنه بعيد جدا عن الملاح المكلف بتوجيه الدفة ! والواقف قريبا منه والذي لم ينطق بكلمة طوال هذا الصراع .

ولم يعد شهاب الدين يشعر بأنه على ظهر السفينة ! ولم يعد يعرف انه موجود مع ابيه .. ولم يعد يسمع الا وشوشة غريبة تملأ اذنيه من الداخل !

— الوحش سيهاجم السفينة ! اضربوه بالخناجر ! سنصنع منه طعاما شهيا ! احذروا ضربة الذيل ! سيدي ! لقد اكل الوحش ذراع المسكين ..! .. سيدي ! الاعرج ضعفك ولن يقتلوه !

وتهالك جسمه كالهشيم ! ولم يشعر به احد .. فقد كان الرجال جميعا ، مشغولين بالنمر الذى قتلوه .. خائفين من الوحوش الباقية في الماء .. مذعورين تحت ظلام الليل ، متهالكين في وحشة البحر !

ولم يتنبه اليه الا هذا الرجل الاعرج الذي كان يجلس منزويا وعيناه على الصبى الصغير .. فقد اسرع اليه يسنده ويقول :

— اشرب من هذه القربة ..!

والصق فم القربة التي يحملها من فم شهاب الدين .

— اشرب جرعة ثانية ففيها ماء الزهر ..!

واسترد شهاب الدين نفسه من الضياع والاعرج لم يبرح يقول :

— انت شجاع .. وقد انقذتني من الموت .. وستكون اشجع ملاح تعرفه هذه البحار .

قال شهاب الدين بصوته الهشيم :

ـــ كانوا سيقتلونك !

وكانت الضجة ، قد اتخذت لونا اخر فوق السفينة ...

فالربان ينادي على الملاحين المكلفين بدفع المجاديف ان يتحركـــوا بسرعة اكثر واكثر ! والسياط تنزل هنا وتنزل هناك ! والمجاديف تضرب الامواج .. بقوة اكبر واكبر . والربان يزمجر :

ـــ لا بد من الخروج من بحر الاهوال !

وشهاب الدين يقول بصوته الضعيف :

ـــ هل حقا سنخرج من بحر الاهوال ؟

والاعرج الجالس عند قدمي شهاب الدين يقول :

ـــ **ستعود وحوش البحر بعد** قليل .

ويهمس الصبي ، بلا خوف ، وبلا شجاعة :

ـــ سنغرق الليلـــة !

ويقـــول الاعـــرج :

ـــ ستغرق السفينة اذا هاجمتها وحوش البحر من جديـــد وسادها الفزع والاضطراب فالليل جبار والبحر جبار ، ورجالكم لا يعرفون طبائع هذا الوحش ولا يعرفون كم يبتهج البحر والليل، عندما تفترس النمور الملاحين !

واضاف الرجل الاعرج بصوت اقوى :

ـــ لكنك شجاع !

وقال شهاب الديـــن :

ـــ وليس لنا من نجـــاة !

قال الاعـــرج :

ستنجو السفينة وركابها اذا كان فيها خراف مذبوحة ..!



الحلقة الثالثة



جزيرة القمر

دخلت السفينـــة في خطـــر جديد .. فقد اشتد ظلام الليل ، واصبح البحر مخيفا .. فماذا سيحدث للسفينة وركابها عندما ينتصف الليل .. ؟ كـــان الملاحـــون يعتقدون ان ((الموت)) يخطف ضحاياه من البحارة ، قبل طلوع الفجر .. ! فقد تهب عاصفة مفاجئة على السفينة وتقلبها على جنبها ، وترسلها الى القاع ! .. وقد تهاجم اسماك القرش ركاب السفينة مرة اخـــرى .! وقد تضيـــع السفينة في امـــواج البحـــار العالية ! فكل شيء كان ينذر بالخطر الشديد ..

وهمس البحارة بعضهم لبعض :

ـــ انها النهايـــة .. !

فرائحة البحر ذاتها ، كانـــت تشبه رائحة الموت ! وربـــان السفينة ، نفسه لم يكن يعرف الى اين تتجه السفينة فالنجـــوم مختفية وراء الغمام الاسود والليل مظلم ، والسؤال الذي يدور في عقلـــه هـــو :

ـــ ماذا سيحدث لنا جميعا .. في هذا البحر الغادر المخيف ؟

***

واقترب الرجل الاعرج من ربان السفينة وقال له :

ستنجو السفينة اذا القينا الذبائح في الماء !!

واجابه الربان ساخـــرا :

ـــ انت تنصحنا بأن نرمي طعامنا في الماء ونموت بعد ذلك من الجوع !.. اي فائدة في هذا العبث !

قال الرجـــل الاعـــرج :

ـــ اسمح لي بأن ارمي ذبيحتين لا غير .. ذبيحة لمارد البحر .. وذبيحة ثانية لاسماك القرش ! وثـق بأن السفينة ستنجو مـن الهـلاك !

***

وكانت عيون الملاحين مرهقة بالظلام ، واجسامهم متهالكة لا تستطيع ان تتحرك !

وكان ربان السفينة نفسه ، كقطعة من القماش الممزق .. فقال في فتور :

ـــ اقذفوا ذبيحتين في البحر .. !

واطاع النوتية هذا الامر ، وكانوا على استعداد ان يطيعوا اي امر اخر يعطيهم املا في النجاة .

وشيئا فشيئا ، اخذ الهدوء يتسرب الى ظهر السفينة واخذت الريح تهب في رخـاء .. !

واضيء سطح الماء بنور غريـب ! نور لا يأتي من النجوم او القمر ولا يأتي من المشاعل او النار .. كان هذا النور ينبعث من تحت سطح الماء وكان الضوء ، يتسع اكثر فأكثر وخطف النور ، عيون الملاحين ، فتهامسوا :

ـــ انه ملك الاعماق ! .. لقد رضي بالذبيحة واعطانا هـذا النـور .. !

***

واتسعت بقعة النور حول جوانب السفينة ، وانتشرت امام المقدمـة ، ووراء الدفـة ..

وبدت السفينة كغراب اسود ، يسبح في بقعة من الاضواء الباهــــره !

وضحك الربان لاول مرة ، منذ ان غادرت السفينة الميناء ، وقال للاعرج مداعبــا :

ــ انت الان مرشدنا في المياه الخطيره ! .. انقذتنا من سمك القرش ، وانقذتنا من ظلام الليل وبطش البحر .. فاطلب منا مـــا نشـــاء .

قـــال الاعـــرج :

ــ لا اريد شيئـــا !

قـــال لـــه الربـــان :

ــ هل يكفيك ان تكون رئيسا على « النوتية » !

كرر الاعـــرج كلماتـــه :

ــ لا اريد شيئا ! فأنا مدبـــن لك ولابنـــــك شهاب الدين بحياتي !... انت انقذتنى من ايدي الملاحين عندما ارادوا القائي لسمك القرش وشهاب الدين دافعهم عني وانقذ حياتي وانت يـــا سيدي الذي أمرت بأن اركب السفينة . واعود عليها لبناتي .

***

واشتدت الاضواء الصادرة من تحت سطح الماء ، حتى بددت كل غموض فوق ظهر السفينة وحتى استطاع الملاحون ان يـــرى بعضهم البعض الاخر ..

وقال الملاح الخبيث الذي يسمونه «التعلب » :

ــ احذروا هذا الاعرج فانه ساحر شرير !

ولكن الملاحين لم يستمعوا الـــــى التحذير .. فقد كانـــوا « مستهلكين » تمامـــا !

ومشى النوم في مفاصلهم وسرى في اطرافهم واطبق علـــى

جفونهم واستسلموا للنعاس وكأنهم لم يناموا منذ مائة يوم !!

ولم يبق صاحيا على ظهر السفينة الا هذا الاعرج وشهاب الدين الصغير .

***

وكان شهاب الدين يمسك بالدفة مفتوح العينين كالصقر . واقترب منه الاعرج وقال :

— سأذهب الى مقدمة السفينة وارشدك .. واذا سمعت اصواتا عجيبة ، او رأيت اجساما غريبة فلا تفزع ! .. وهات يدك ! واقرأ معي فاتحة الكتاب !

فأنت وانا صديقان .. !

وقرأ الاعرج وشهاب الدين فاتحة الكتاب ثم قال الاعرج :

— وقل معي : كل شيء بميقات ووعد ، وكل وعد الى وفاء ، وقد رضينا ونعاهدنا على ان نكون اعوانا للخير ، وكان ذلك عهدا بين الصالحين والله على عهدنا شهيد !

وتقدم الليل والضوء العجيب يشتعل من تحت سطح الماء .. وبدأ الاعرج يهمهم باصوات غريبة ... اصوات كصياح طائر الجنة الذي سمع عنه شهاب الدين .. واصوات كفحيح الافاعي التي وصفها له ابوه .. واصوات اخرى غامضة غير مفهومة مثل نقيق الضفادع . !

وزادت هذه الاصوات من خدر الملاحين فلم يعد احد منهم يستطيع ان يتحرك في مكانه ، او ينقلب على جنبه !

وخطر لشهاب الدين ان وراء هذه الاصوات العجيبة اسرارا اشد غموضا ! من ظلام الليل والبحر !! ولاحظ شهاب الدين ان النور قد اخذ يرتعش من تحت سطح الماء !

وسمع اشياء خفية تخرج من بين الامواج ! . وسمع هذه

الاشياء الخفية ، تتسلق جوانب السفينة ، وتمشي هنا وتمشي هنـــاك !

وسمع زفيرا وشهيقا وحفيف ثياب لكنه لم يكن يستطيع ان يرى اصحاب هذا الزفير والشهيق ، والثياب ..

وبرك الرجل الاعرج مكانه وذهب الى حيث كان يقف شهاب الدين وقال له في هدوء :

ــ هل انت خائف ؟ لا اظنــك تخاف فقد قرات معي فاتحة الكتاب . والتقيت معي علىٰ عهد الصالحين ولن تخاف !

قـــال شهـــاب الدين :

ــ ظننت اني سمعت اقدامـــــا كثيرة تمشى على خشب السفينـــة !

وقبل ان يسأل شهاب الدين : ومن يكون هؤلاء الاصحاب ، قـــال الاعـــرج :

ــ وستراهم بعينك الان !

واطلق الرجل الاعرج اصواتا غريبة اخرى من بين شفتيه ، ورأى شهاب الدين اقزاما كثيرين هنا وهناك .. وكانت اجسام الاقزام ضامرة ولونها اسود ! .. وكانت سيقانهم كسيقان المعز .. وبعضهم يطير من اول السفينة ويهبط عند مكـــان الدفة وبعضهم يقفز فيتسلق سارية الشراع وينزل في لمح البصر .. وكان طول كل قزم شبرين او ثلاثة !

واقترب منه صوت غامض خفى يقول له :

ــ انت الان اميرنا .. فلا تخف منا .

ورأى شهاب الدين ان القزم الذي يكلمه ، يختلف عن بقيـــة الاقزام ، فطوله خمســة اشبار ونيابه كاجنحـــة الطير ، وعينـــاه مسحوبتان ، ووجهه طويل ، ولونه يميل الى البياض .

ولم يخف شهـــاب الديـــن !

وعاد القزم يقـــول لـــه :

ستأتي معنا الى جزيرة القمر .. وسيأتي معنا هذا الرجل الاعرج الطيب فهو صديقنا منذ عشرين سنة !

قال شهاب الدين :

ــ وماذا سيحدث للسفينة ؟

قال القزم :

ــ كل خير ! سنتركها في حراسة بعض اخواننا ولن تقترب منها وحوش البحر ولن تعصف بها الامواج ولن تهب عليها الانواء ! وثق بي فأنا خادمك الامين !!

***

واراد شهاب الدين ان يوقظ اباه الربان ويستأذنه قبل الذهاب مع الاقزام !! ولكنه وجد نفسه محمولا فجأة على اطراف الموج .. واحس كأنه جالس على بساط مسحور يتحرك كالغمام في فضاء غامض !

وبعد قليل سمع القزم يخرج من الماء ويقول له :

ــ سيدي ! انت الان في جزيرة القمر !

***

وسار شهاب الدين والقزم والرجل الاعرج ، بين اشجار النارجيل الكثيفة واشجار الخبز الضخمة ، وعلى سفوح الجبل الخضراء !

ولم يرهقه المشى ، فقد كان يرى مالا تراه عين ، ويسمع ما لا تسمعه اذن !

وكان الاعرج يقول له :

ــ هذه هى جزيرة القمر الكبير .. وقريبا منها تقع جزيرة

« الخراف » التي يترك فيها الملاحون الحراف ويعودون اليها بين الحين والحين فيجدون طعامهم موفورا وبعدها تقع جزر « الطير » التى يسكنها الدجاج الوحشي ، والطواويس والعصافير ، وطائر النار ، وطائر الجنة ، وهذه الطيور تبني اعشاشها الجميلة فترتفع بها من الارض الى فروع الشجر ، وتنزل بها من قمم الاشجار الى الجذور ! انها اجمل هذه الاماكن كلها وسنزورها ذات يوم !

واستدرك القزم وقد بدا النور يشقشق في السماء قائلا لشهاب الديـــن :

— سيدي الامير ! لقد اقتــرب الفجر واخشى ان يستيقظ والدك الربان فلا يجدك فهل نرجع قبل ان يفيق من النوم !

وفي لمح البصر ، عاد القزم بشهاب الدين محمولا على اطراف الموج وعاد معه الرجل الاعرج !

ومع الفجر صحا الربان من نومه فأخبره شهاب الدين بمـــا حـــدث !

لكن الربان كان يظن ان ابنه شهاب الدين قد اصيب « بهذيان البحر » .. فضمه الى صدره وقـــال :

انى افهم ما حدث لك يا شهـــاب الدين ! كانت ليلة الامس قاسية وعلينا جميعا لكنك لن تخاف ! فمن يعطى نفسه للبحـــر يجب ان يكون شجاعـــا !

وادار الربان عينيه في البحر مشفقا ثم خائفا ، وقال وهو يعود صوب شهاب الدين :

— اني اشم رائحة الزهق ! واخشى ما اخشاه ان نبقـــى السفينة في هذا المكان ، ويقتلنا الظمأ والقيظ ... فالحرارة ستكون شديدة للغاية في يومنا هذا .. والماء العذب ، الموجود في السفينة لا يكفى رجالها ! واذا التهب قرص الشمس ، واصيب الرجـــال بالزهق والعطش الفظيع ! فانهم يمزقون بعضهم بعضا بالاظافر والاسنان ! ولست اريد لرجالي ان يتقاتلوا كالوحوش !

وقال شهـاب الدين لابيه :

ـ سيدي ! لماذا لا تأمر رجالك بأن يتجهوا بالسفينة الى جزيرة القمر ؟

فقال الربان في هدوء :

ـ واين نحن من جزيرة القمر ! هذه الجزيرة تفصلنا عنها سحاب مرجانية قاتلة ! واخشى ان يكون يومنا هذا قائظا فينعقد البخار الكثيف فوق الماء .. ويتعذر علينا ان نرى طريقنا بين صخور المرجان ! وندفع بالسفينة في وادي الموت بين هذه الصخور !

***

لم تكن الشمس قد طلعت بعد .. وكان البحر الساكن ينذر الربان باهوال اشد من اهوال البحر الهائج .

واقترب الرجل الاعرج من الربان وهو يقول :

ـ اذا سمح لي سيدي بأن اطلب العون من الاقزام طلبته على الفور !

قال الربان ساخرا :

ـ انت الاخر تهذي كالصبي ! ثم اضاف :

ـ وبأية لغة ستكلم اقزامك هؤلاء . قال الاعرج :

ـ بهذه اللغة ؟

وارسل من جديد صفيرا ناعما كأنغام « الناي » .

واخذت السفينة تتحرك من مكانها وكأن قوة خفية تدفعها دفعا الى الجنوب .

ثم حدث ما جعل قلب الربان يرتج في صدره !!

لقد ارتفعت السفينة قليلا فوق سطح الماء ! ..

وظهر الغضب على وجه الربان وقال في كبرياء جريح :

ـ ايها الساحر الملعون ! لا اريد لهذه السفينة ان تسبح

في الهواء ! فمملكتي هي الماء !

قـــال الاعـــرج :

ـــ سيدي لست ساحـــرا ! ..

وصاح الربان في ابنه شهاب الدين :

ـــ دق الاجراس ! وايقظ الملاحين من النوم !

ولكن صليل الاجراس لم يوقظ احدا !

وطلعت الشمس قليلا في الافق ، وكان قرصها محنقنا وبخار الماء الكيف مثل كتلة من الضباب الاسود .

لكن السفينة ظلت نجري على اطراف الموج وبعد قليـــل وصلت السفينة الى منطقة المياه الصافية فوق صخور المرجان ..

***

وكان شهاب الدين مأخوذا بالوان هذه الصخور واشكالها ففيها الوان الزمرد والياقوت والفضة !

ومن حولها كانت طحالب واسماك وحيوانات مائية دقيقـــة لامعـــــة !

وكانت اشكال هذه الشعاب المرجانية ، تبدو كالجماجم أو قرون الوعل ، او اسنان الوحوش او فروع الاشجار ، واسنان الامشاط الضخمـــة !

***

وقـــال الاعـــرج :

ـــ سيدي الربان ! نحن الان ، نمر فوق وادي الموت .. !

ان سفنا كثيرة تحطمت هنـــا .. على الجانبين .. فوادي الموت اخطر طريق مائي في هذه النواحي .

واغمض الربان عينيه . فهذه هي اول مرة ، يركب فيها سفينة تطير فوق اطراف الموج .. بدلا من ان تسبح في الماء .

وبعد قليل .. اخذت السفينة تلامس الامواج . ثم هبطت السفينه في احضان الماء .. واحس الربان بالراحه ، فنادى ابنه شهاب الدين :

ــ دق الاجراس من جديد !

***

وبينما كانت السفينة تتهادى صوب جزيرة القمر ، كان الملاحون قد افاقوا من النوم ، ونشطوا ودفعوا المجاديف ، ونشروا الشراع وارسلوا اصواتهم ، عالية ، صريحة رعناء .. !

وقال احدهم :

ــ سيدي الربان .. ! ان السفينة تندفع الى عمود الدخان !

وكان عمود ضخم من الدخان ، يرتفع من قمة الجبل العالى في الجزيرة الى كبد السماء !

وقال ملاح اخر :

ــ ايها الاحمق هذه نافورة المياه السوداء ! ، لكن « الربان » ابتسم وقال في هدوء :

ــ بل هذا الدخان الكثيف الذي يظهر بالنهار ثم يصبح عمودا من النار بالليل ! هو البركان الثائر الموجود وسط جزيرة القمر !

وقال الملاح الخبيث الذي يسمونه بالثعلب :

ــ وليس في الجزيرة نساء !

ــ بل فيها اجمل الحوريات والنساء .. !

واضاف الاعرج :

ــ وفيها اجمل الاشجار واحلى الفاكهة ، وفيها الكهوف

العميقة التي يخفي فيها القرصان ما يسرقونه من سن الفيل ، وريش النعام ، ومن الذهب الخالص ، وفصوص اللؤلؤ والياقوت والجوهر الثمين !

وسأله الملاح الخبيث :

ـ وهل يخفي القرصان نساءهم الجميلات في هذه الكهوف !

ثم استدار الى ربان السفينة يسأله في خوف :

ـ وكيف وصلنا يا سيدي الى جزيرة القمر ؟

قال الربان ضاحكا :

ـ طرنا في الهواء .. فهل تحب ان تطر الى مكان النساء الجميلات في الجزيرة !

قال الملاح الخبيث :

ـ ليتني استطيع الطيران !

واضاف وهو **يقهقه :**

ـ ولكنى استعمل يدي فيما هو اهم من الطيران ! انني اجذب بهما النساء **هكذا !**

وجذب بحارا اخر كان يقف قريبا منه وقبله على خده ! ثم بصق على سطح الماء وقال :

ـ قبلة مالحة .. ! فهذا (التيس) يجفف الملح على جلده !

***

واقتربت **السفينة من شواطىء** جزيرة القمر فنزل الملاحون الى القوارب الصغيرة ، ودفعوها بالمجاديف ، وقفزوا منها الى الماء ، ووثبوا فوق الصخور السوداء الجاثمة على الشاطىء !

واما الربان فقد ركب قاربه الخاص المصنوع من خشب الساج !

وكان معه ابنه شهاب الدين والرجل الاعرج .. واستلقى « الربان » على الوسائد « الناعمة » التي كان يحتفظ بها لنفسه ويستعملها في مثل هذه الجولات البحرية !

وقال لشهاب الدين :

— سنظل ندور في المياه الصافية ، الى ان يهدأ البحاره ...

ثم التفت الى الرجل الاعرج وقال له :

— سأجعلك رئيسا (للنوتيه) وستذهب معنا الى حيث نبيع احمال السفينة وسأعطيك عشرين كيسا من الذهب الخالص فأنت الذي انقذتنا من الهلاك ! لانك رجل صالح كريم !

والان حدثني عن اصدقائك الاقزام !

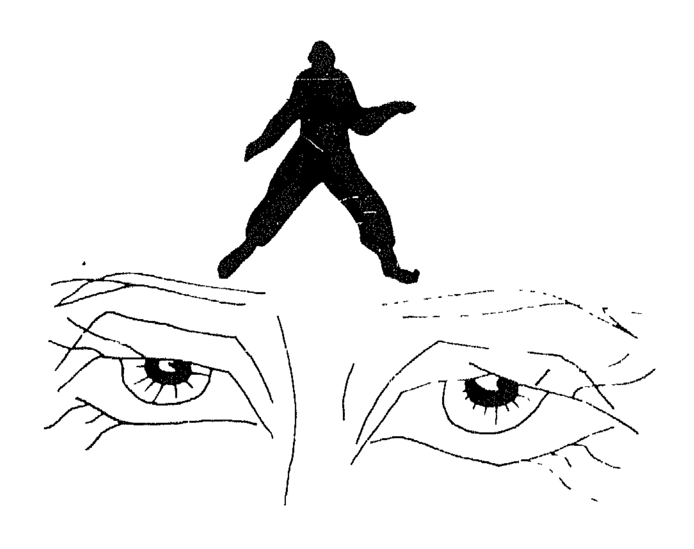
هل حقا يشرب الاقزام دم البحارة بعد ان يسحبوهم الى القاع ؟ وهل يعيشون فقط تحت سطح الماء ؟ وهل لهم مملكة ! وملك !

ولماذا ساعدنا الاقزام وحملونا الى جزيره القمر !

افتح صدرك لي ، فأنت الان اخلص الناس لنا !

وقال لي : ماذا سيحدث لنا مع الاقزام .. ؟

الحلقة الرابعة



بحيرة العشاق في مملكة الأقزام

كل شيء ساحر في بحيرة « العشاق » !
فالدموع التي ترسلها عيون المحبين يحملهـا
النسيم مـن فـوق الخدود الـى بحـيرة
العشاق ... ! وعلى شواطىء البحيرة ،
يظهر في كل ليلة قمرية موكب العذارى اللائي
ينادين البحارة ! وعندما يصل الانسان الى
بحيرة « العشاق » يصبح كل شيء فوق مـا
يتصور الخيـال ...

وذات مساء ، تغيرت حياة الملاحين ، من الهدوء والراحة ، الى القلق والرغبة في المغامرة .. !

كانوا قد عاشوا اربعين يوما وليلة ، على شاطىء الجزيرة ، في نعيم كامل ، وهدوء تسامل . واسترخاء لذيذ ! فكـل شيء كان يسيرا سهلا .. الطعام وفير ، والثمر كثير ، والمكان الذي يعيشون فيه هادىء جميـل !

لكن هذا الهدوء انقلب الى اضطراب عنيف ! ففي ذلك المساء، سمع البحارة .. عن « بحيرة العشاق » .. وعـن العجائب والغرائب التي تظهر على شواطئها في الليالى القمرية .

واضطربت قلوبهم ، وعواطفهم ، كما تضطرب اوراق الشجر ، عندما تهب عليها الرياح !

وتهامسوا جميعا :

ــ سنذهب الى بحيرة العشاق سواء رضى ربان السفينة ام رفض !

وعرف ربان السفينة ان رجاله ، مشتاقون الى الذهاب الى بحيرة العشاق !

وكان الربان يشفق عليهم من ان يضيعوا على شواطىء هذه البحيرة العجيبه ، عندما تظهر الاشباح المعروفة بأنها تغري الرجال بالذهاب **معها الى عالمها المجهـول !**

ولما اكتمل القمر ، جمع الربان رجاله وقال لهم :

ـ سأعطيكم الاذن بقضاء هذه الليلة على شواطىء بحيرة العشاق ! ولكني احذركم من السرقة وخطف النساء ، ومن شرب الخمر ولعب القمار . ومن الذهاب مع الاشباح التي تنادي الرجال عند شواطىء البحيرة !

واضاف **بلهجة صارمـة :**

ـ كل من يخالف هذا العهد ، سيلقى جزاءه العادل !

* * *

واخذ البحارة يتجهون الى بحـيرة العشاق ، جماعات .. جماعـات !

اما الربان فقد سأل الرجل الاعرج :

ـ ما هو اقصر طريق يؤدي الى بحيره العشاق ؟

وقال لـه الاعـرج :

ـ **انه الطريق الواقع في قلب** الغابة !

وبعد قليل ، كان الربان وشهاب الدين والرجل الاعـرج الطيب ، قد سبقوا البحارة الاخرين ! ووصلوا الى البحيرة !

وبدت البحيرة ، اجمل مكان في الدنيا .. فالقمر يغمرها بنوره الفضي ، والاشجار العالية تهتز قليلا مـع النسيم وبعيدا عن شواطئها ، والارض حول مائها ، ناعمة كالحرير ، خضراء ندية !

وقال شهاب الدين وهو يجلس قريبا من ابيه الربـان .

ـ اني اشم رائحة النرجس يا سيدي ! فلا بد من أن يكون وراء هذه البحيرة بساتين نرجس كثيرة !

وضحك الرجل الاعرج وأجاب :

ــ كلا ! يا شهاب الدين !

لن تجد في هذا المكان بساتين ..!

وسأله ربان السفينة :

ومن ابن نأتي رائحة العطر التى تملأ صدورنا .. ؟

قال الاعرج في هدوء :

من خدود العشاق !

ولم تقع هذه الكلمات موقع القبول عند الربان الذي قال للاعرج :

ــ دع عنك هذا العبث !

كيف يمكن ان ينتقل العطر الذكي من خدود العشاق الى ماء البحيره ؟

قال الاعرج :

ــ سمعت يا سيدي الربان ان الدموع التي تسيل من عيون العشاق لا تضيع هباء .. لان النسيم ، يحنو عليها ، ويحملها على اجنحته ، ويرفعها من فوق خدود العشاق ، ثم يصعد بها الى قمة هذا الجبل ، ويسقطها في البحيرة ! وسمعت يا سيدي ان العطور التى يضعها العشاق على خدودهم ، تمتزج بهذه الدموع وترتفع معها ثم تسقط منها في بحيرة العشاق !

ولهذا السبب يا سيدي ، فان مياه البحيرة ، تفوح برائحة المسك والكافور ، ورائحة النرجس والياسمين والصندل !؟

واثارت هذه الكلمات خواطر شهاب الدين .. وارسلت الضحكات العالية من بين شفتي ربان السفينة !



وكانت رائحة العطور ، تزيد كلما صعد القمر في موكبه الجليل الى قبة السماء الصافية !

وسمع الربان وشهاب الدين والرجـــل الاعرج ، اصوات اجسام خافية تستحم في ماء البحيرة ، واصوات ضحكات معدنية متقطعة ترتفع بين الحين والحين .

وقال الربان ساخرا للرجل الاعرج :

ـــ لا تقل لي ان اصدقاءك الاقزام هم الذين يستحمون الان هنـــا !

فأصدقاؤك هؤلاء قد لقيناهم في مياه البحر الضحلة وعند اسفل الجبل ! ولا اظن انهم قادرون على ان يصلوا الى هذا المكان الهادىء الطاهـــر !

وضجت الضحكات من تحـــت سطح البحيرة ، وارتفعت وشوشة الماء ، وكركرة الاجسام وهي تخرج من الماء !

وقـــال الاعـــرج :

ـــ صدقني يا سيدي الربان !

ان اصدقاءنا الاقزام يعيشون على هذا الجانب من شواطىء البحيرة ! وانهم لا يؤذون احدا ولا يرتكبون معصية ! انهم اناس طيبون مسالمون ! وسأله شهاب الدين :

ـــ ومن الذي يسكن في الجانب الاخر من شواطىء البحيرة ؟

قال الاعرج في خـــوف :

ـــ انهم الغيلان !

وكان القمر قد اكتمل في مسيرته الليلية ، وتقاطر البحارة ، صاخبين ، ضاحكين ، فرحين !

وكانوا قد حملوا معهم طعامهم من الخراف المشوية ، والثمار الشهية ، والقرب المملوءة بعصير الزهر اللذيذ ، والثمر البديع !

واختار الملاح الخبيث ان يجلس وحده بعيدا عن الاخرين ! وان يشرب من قربته الصغيرة ، ويأكل طعامه من الاسماك المشوية!

ومرت سحابة شفافة فوق وجه القمر .. ثم توقفت عـن المسـير !

ولاحظ الملاح الثعلب ما حدث للسحابة والقمر فقال ضاحكا :

ــ القمر يتستر وراء هذا النقاب حتى لا يرى وجوهنا الارضية القبيحـة !

ورد عليه الاعـرج في هـدوء :

تلك عادة القمر في هذه الساعة من الليل فهو يضع نقابا على وجهه عندما يصل موكب العذارى !

وكان اريج العطر والنرجس والياسمين قد اطبق علـى الصدور ، وركب اجنحة الريح !

ومن بعيد رأى البحارة ، موكب العذارى ! وكان موكبا بديعا رهيبـا !

وكانت العذارى يمشين واحدة وراء اخرى ، في صفـوف منتظمة ، وكن يلبسن ثيابا هفهافة رافلة ، ويرفعن ايديهن احيانا ، فتبدو اكمام هذه الثياب كاجنحة الطير !

وكانت بعض العذارى يمشين ، على حافة الشاطىء ، تداعب سيقانهن امواج البحيرة !

وتوقف موكب العذارى على مسافة بعيدة من البحارة !

وارتفعت منه ، ضحكات ناعمة دافئة واصوات اشد نعومـة ودفئـا .. !

وتكسرت كلمات البحارة ، في افواههم واضطربت أيديهم وهى تحمل ما تبقى من طعـام .

وتهدج صوت الملاح الثعلب وقال للربان :

سيدي الربان . اسمح لـى بأن اتحـدث مع هذه الاشباح الواقفة هناك فقد تكون اشباحا معادية لنا ، تريد بنا الشر !

واجابه الربان ساخـرا :

ـ لن اسمح لك بأن تبذر الرذيلــة في هذه الارض ! فأنت تعرف جيدا ان الواقفات هناك هن العذارى !

قال الرجل الخبيث :

وماذا يمنع رجــلا في مثل سنى من ان يتحدث الى فتيات في عمــر بناتــه ؟

قــال الربــان :

ـ لا اريد ان تبذر الخطيئة هنا !

وكان الرجال الحاضرون يسمعون صوت البحار الخبيث وهو يتمـــــرد :

ولكني سأذهب ! فأنا اعرف عشرا منهن على الاقل ! لقــد جمعت اخبارهن من القرية ، وقابلت عذارى كثيرات ! وسأنادي عليهـــــن !

ووقف الملاح الخبيث ، يترنح ـ فقد كان مخمورا ـ وصاح :

ـ يا ذات الوشاح .. يا جميلة .. يا نجلاء ! ايتها العذارى الباحثات عني ! انا هو الملاح الذي اعطاكــن وعدا بعقود اللؤلؤ والياقــوت !

وامسك الربان بكتف الملاح الخبيث وصاح فيه غاضبا :

ـ مكانك لا تتحرك !

ثم قال لجلاد السفينة سعد السيرافي :

ـ هذا الخنزير الملعون يستحــق خمسين جلدة لانه شرب الخمر وخمسين جلدة اخرى لانه اغرى العذارى بالعطايا الكاذبة !

وانفجرت اعصاب الرجال ، وتكسرت ، كما تتكسر الاغصان تحت اثقــال الثمـــر !

وكانت اثقال من القلق وحب الاستطلاع والاشواق تضغط عليهم جميعا ، واختلط كلامهـــم :

** سيدي الربان ! دعنا نخطـــب ود هذه العذارى وفي الصباح نعقد عليهن باذن الله !

** بأي حق تحرمنا من ان نتزوج ممن نشاء !

** ولقد ولدتنا امهاتنا ، لنبنى بيوتنا ، ونتخذ زوجات ! ونأسر امثال هذه العذارى !

كذلك قال البحارة الذين كانوا لصوص بحر قبل ان ينضموا الى سفينة الربان !

وصاح الملاح الخبيث محتجا :

ـ انا اعرف منهن عشرا على الاقل .

واضاف اخر :

ـ والعذارى ينادين علينا !

وارتفع صوت الربان صاخبا متوعدا ، وشهر سيفه في وجه الرجال :

ـ قسما بحق من تعاهدنا باسمه الحق على ان نكون اطهارا ، سأقطع عنق كل من يخطوة واحدة نحو العذارى !

واحدث الضجيج والصياح والوعيد احداثه المنتظرة ، فقد غابت السحابة التى كانت تغطي وجه القمر واختفى معها موكب العذارى ، فأصبح سرابا غامضا ، عائدا من حيث جاء !

***

وغضب بحارة كثيرون ، فتركوا البحيرة عائدين الى الشاطيء ! واستسلم بحارة اخرون للنوم ! وبقي حول الربان ، الرجل الاعرج الطيب ، وسعد السيرافي ، وشهاب الدين !

ومضى مقدار ساعة اخرى .. واقبل عليهم رجل عجوز ، يتوكأ على عصاه الطويلة ! فألقى عليهم السلام وقال :

جئت ارحب بكم يا سيدي الربان فأنا خازن هذا المكان !

ودعاه الربان الى الطعام فرفض الخازن ، ان يتناول الشواء ، او الثمار ، واكتفى بأن شرب من الماء المعطر واضاف :

ـــ ما دمت يا سيدي الربان قد منعت رجالك من ايقاع الاذى بموكب العذارى ، فأنا خادمك حتى تطلع الشمس !

ودار الحديث بين الربان ورجاله وهذا الخازن العجوز حول اسرار بحيرة العشاق ومملكة الاقزام والكنوز المطمورة في الكهوف . !

وحرك الحديث ، قلب سعد السيرافي ، وعصف به عصفا شديدا فراح يمطر الخازن بالاسئلة :

ـــ وكيف تحرس هذه الارض وانت رجل عجوز ولست مقاتلا وليس معك سلاح وليس حولك جند اخرون ! وقل لى : اين هي هذه الكنوز وما هو الطريق اليهــا !

واجابه الخازن ضاحكــا :

ـــ اني اخاف عليك من معرفة الحقيقة !

قـــال سعـــد السيرافـــي :

ـــ لا تخف شيئا فأنا رجل ! رجل يحب ان يعطى حياته للمعرفة ولست لص بحـــار !

قـــال الخـــازن العجـــوز :

ـــ اعرف هذا ، ولكني اخشى ان اجيب على الاسئلة فيقع ما لا احب ان يقع !

قـــال السيرافـــى :

ـــ يقـــع مـــاذا ؟

اجابـــه الخـــازن :

ـــ يقع ما لا تريده انت !

وكان الرجل الاعرج وشهاب الدين صامتين ـــ لكـــن سعد السيرافى ظل يلح على الخازن ويسألـــه :

ـــ كيف اعرف الجواب على اسئلتى ؟

قـــال الخـــازن

ـــ اذا استطعت ان تحل اللغز القاتل عرفت كل جواب !

وسأله السيرافى :

واي لغز يكون هذا الذي يقتل الناس !
وقاطعهما الرجل الاعرج متوسلا :
ــ سيدي الربان ! لا تدع الخازن يلقي علينا لغزه القاتل !
قــال السيرافــي :
ــ سأعرفه حل اللغز بلا نزاع !
واستدرك الاعرج قائلا :
ــ واذا لم تعرفــه !
قــال الخــازن :
ــ اذا لم يعرف الجواب الصحيح فانه يموت ميتة شنيعــة قبل ان يعود الى اهله وبيتــه !
قــال السيرافــى :
ــ اتقبلها وانا اقبل المخاطرة !
قــال الخازن العجوز :
ــ لك ما تشاء هذا اللغز يسألــك ما هو الشيء الشديد البياض الموجود في كل البلاد الذي يولد في البحر ويعيش بين الصخر ويموت اذا عــاد للمــاء .
واستأذن الخازن في الانصراف واخذ عصاه ورحل !

* * *

وانذرت الشمس البحارة ، بانها ستطلع عليهم بعد قليل .. فهبطوا الى شاطىء الجزيرة !
واثناء العودة ، سأل ربان السفينة ابنه شهاب الدين :
ــ هل عرفت ايها الصبي حل هذا اللغز !
قال شهاب الدين :
اجل يا سيدي فالجواب الصحيح هــو ان هذا الشيء هو الملــح !

وكان الصبي والربان يسيران بعيدا عن بقية البحارة ، فوضع الربان يده على رأس ابنه وهمس :

ــ بارك الله في عقلك الذكي ! ان خير ما تصنعه بهذا العقل ان تزيده علمـــا !

واخذ الربان يشرح لابنه الغرائب الموجودة حولهما فقال له :

ــ انظر جيدا الى هذه الثمرة ! أليست في حجم حبة البطيخ ! انهم يسمونها ثمرة الخبز لان لبابها كالعجين المختمر . فاذا وضعته على نار حامية ، وانضجته صار خبزا شهيـــا !

وعندما وصل الربان وابنه الى الصخور السوداء قال الربان :

ــ وانظر هناك ! هذه الاسماك التي تسلق الاعشاب ليست نادره كما تظن ! لقد شاهدتها مرات كثيره في المناطق الاخـــــرى الواقعة تحت خط الاستـــواء !

واضاف الربان وقد وصل البحارة الى الشاطىء :

ــ ايها الرجال ! ان الريح الموانية تهب في اتجاهها الثابت ! فاستعدوا للرحيل بعد ساعة ! فمـــن كان منكم صاحب حاجة في الجزيرة ، فليمض اليها ، هذه اللحظة ! وعودوا جميعـــا قبل صلاة الظهـــر ، الى السفينـــة !

وعادوا محملين بصناديق مختلفة واحمال كثيره ، وكان سعد السيرافي جلاد السفينة قد احضر صندوقا غريب الشكل ، لكن احدا لم ينتبه اليـــه .

***

واقلعت السفينة ، في طريقها وقبل ان تصل الـــــى منطقة الصخور المرجانية همس الربان في اذن الرجل الاعرج قائلا :

ــ نحن في حاجـــة لمساعدة اصدقائك الاقزام !.. قل لهم يدفعون السفينة في الطريق الآمن ، بين الصخور !

واجـــاب الاعـــرج :

ـــ انهم يدفعونها الان كما نريد . وعاد الربان يهمس له :

ـــ هل يستطيعون ان يسافروا معنا الى ان تصل السفينة بسلام الى المبناء القـــادم ..

قـــال الاعـــرج ضاحكـــا :

ـــ اجل يا سيدي ! وهم الان في باطـــن السفينة يساعدون البحارة في دفع المجاديـــف !

ثـــم قـــال الاعـــرج :

ـــ ولا داعي للهمس يا سيدي فان اخانا سعد السيرافـــي الذي يسمعنا الان ، قد عرف مني كل شيء عن الاقزام ! حتى خوف الاقزام من الشباك المصنوعة من الياف جوز الهنـــد حدثته عنه ! تصور يا سيدي ان هؤلاء الاقزام الشجعان يخافون اشد الخوف من الياف جوز الهنـــد .

***

وعند العصر اظلم الجو فجأة ! واطبق على السفينة طائـــر ضخم الجسم ، رهيب الشكل ، ونشر جناحيـــــه وذيله على كل جوانب السفينة واصيب الملاحون بفزع قاتل ..

وصاحـــــوا :

ـــ سنغـــــرق !

وقـــال الربـــان :

ـــ ايها الرجال اضربوا مخالب الطير بالسهام والخناجر !

ولكن احدا لم يستمع له .. ولم يكن احدهم قادرا على ان يرى اصابع يديه من شدة الظلام .

وقال الاعرج الطبيب في خوف حقيقي :

ـــ لا فائدة يا سيدي !

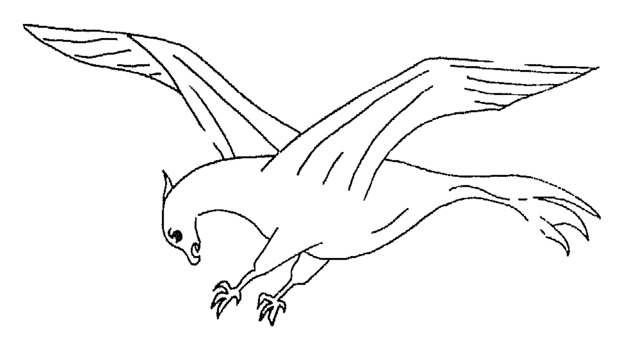
واجابه الربان في هدوء شديد :

ـــ وحتى انت ! لماذا قلت لا فائدة ! ما هو هذا الطير ؟

قــــال الامـــوج :

انه الطائـــر الجبـــار .. !

الحلقة الخامسة



الطائر الجبار

في ذلك الزمن ، كانت الاخطار تفتح شهية الملاحين للقيام برحلات اخـرى اشد خطرا واكثر اهوالا ! وكان الصراع مع البحر ، يلد الخوف ، ويلد المعرفـة ايضا !.. ومن الخوف ، نشأ الايمان بالاساطير والخرافات ! ومن المعرفة نشأت السيطـرة علـى زمام الملاحة ! .. وتفتحت شهية الملاحين والتجار للمجد .. والحب .. والثراء ... والراحة.. فقد كان ذلك هو الزمن الذي يوشك ان يترك مكانه لعصور جديدة تماما ...

ولما اطبق الطائر على السفينة ، نشر جناحيه على جانبيها . وأرخى ذيله على مؤخرتها ، فأظلمت السفينة ، ظلاما اسود من السواد ! ولم يعد احد من ركابها ، يرى اصابع يديه وصاحوا :

● النجدة !.. لقد وقعنا في قاع البحر !!..

وقاطعهم الملاح الخبيث ساخرا :

● لم نقع بعد الى القاع ايها الجبناء !

وضغط الطائر بجسمه الثقيل ، على السفينة ، فتسرب الماء اليها .. واصبح الهواء محصورا بين ريش الطائر ، مثقلا برائحة بغيضة تكتم الانفاس !

ووصلت المياه ، الى (حلاقيم) الرجال ذوي الاجسام القصيرة ! فارتفعت من حناجرهم اصوات (الغرغرة) و (الحشرجة) و (الكركرة) !.

ولم يترك الملاح الخبيث سخرياته فقال :

ـ اشربوا هنيئا من الماء المالح ايها الخنازير !! فقد رفضتم ان تشربوا من بحيرة العشاق المعطرة بماء الورد !

واختلط الخوف بالندم ، والصراخ بالسعال ، والظلام بروائح

(الزهــق) ..

ونادى الرجل الاعرج الطيــب :

ــ ايها الرجال .. انكم تغرقون هذه الساعة لان بعضكم ارتكب ذنبا عظيما فالطائر الجبار ، مكلف بأن يحاسبكم علــى هذا الذنب ! وليس لكم من نجاة الا ان تقولوا الحقيقة !

هل ارتكب احدكم الكبائر في جزيرة القمــر !

هل دنسها عربيــد فشرب الخمــر ولعـــب القمار وغرر بالعذارى !..

هل اوقع احدكم الضرر بالاقزام الطيبين !

هل سرقتم اموال اهل الجزيره !

هل قتلتم احدا من سكانهــا !؟

تكلموا .. حتى لا تموتوا اختناقا ... وغرقا !

وكان سعد السيرافي ، واحـــدا من الرجال ذوي الاجسام القصيرة ، فدخل الماء المالح الى صدره ، وملأ معطسه ... وجعله يتخبط ، بين احمال السفينة وحواجزها ، وقد ضاقت الدنيا فــي عينيه ، فصاح :

انــا هــو المذنــب !

قال لــه الربــان :

ــ تكلم بالحقيقـــة !

اجاب سعد السيرافي :

ــ سرقت الدجاجة النحاسية من كهوف الاقزام .

***

واحدث اعتراف سعد السيرافي بذنبه ، آثاره على الفــور ، فانخفضت المياه كثيرا ... واصبـــح الملاحون يستطيعون ان يتحركوا ... وعندما استعادوا القدرة على المشي ، تجمعوا حول

سعد السيرافي ، صاخبين غاضبين وتناولوه بالايدي يريدون ان يمزقوه وتقاذفوه مرة ومرات ، وسعد السيرافي يدافع عن حياته ، بلا فائـــدة !

ولكن الرجل الاعرج ــ الذي اصبح حكيما في نظر الملاحين ــ قـــال لهـــم :

ــ لا تقتلوه عن غضب وحماقـــة .. لانكم ان فعلتم ذلك ، ضاعت الدجاجة النحاسية ... فاتركـــوا هذا اللعـــين ، يحضر الدجاجة وبعدها يفعل الله ما يشاء !

***

وفي هذه الاثناء كان شهاب الدين الصغير هو الشخص الوحيد بين ركاب السفينة الذي نجا من محاصرة الماء !. فقد تسلـــق السارية ، عندما اطبق الطائر الجبار على السفينة . والتصق بجناح الطائر ، الجبار ، واحس شهاب الدين بأن ريش الطائر يحنو عليه ، ويحيطه بالنعومة والدفء ! وكأنه يأخذه بالاحضان !

وكانت عيناه اللامعتان ، ذاهلتين ، مأخوذتين حائرتين !

***

وقال الرجل الاعرج من جديد :

ــ سيدي الربان ! لا بد من احضار الدجاجـــة النحاسية وتعليقها في ساق الطائر الجبار ، حتى يطمئن ويهدأ ويترك السفينة تجري الى غايتهـــا .

وعند ذاك اخرج الربان خنجره من غمده ، وغرسه في كتف سعد السيرافي حتى أسال دمه . وأمطره بالشتائم وهـــو يدفعه امامـــه :

ـ تحرك ايها الكلب المسعور ! وهات الدجاجة النحاسية !!.

وتعثر سعد السيرافي في مشيته ، وكان كالاسير الجريح الخائف ، وعندما وصل مع الربان الى (اكنان) السفينة قال :

ـ هذا هو يا سيدي المكان الذي اخفيت فيه الدجاجة النحاسية فارفع خنجرك عني حتى اخرجها من مخبئها !!

واخرج سعد السيرافي تلك الدجاجة العجيبة ، المصنوعة من النحاس والفضة ، والتي كانت عيناها ، قطعتين من الفيروز ، وكان منقارها مصنوعا من الذهب الابريز ، وكان جناحاها مشغولين بالميناء ! وكان مكتوبا على صدرها :

... « طريق الجنة معروف لكنه صعب طويل وطريق النار معروف لكنه يسير قصير » .

***

وربط الربان هذه الدجاجة العجيبة في ساق الطائر الجبار ! وعندها سمع البحارة ، قهقهه هائلة ، كأنها دوي صخور تقع من قمم الجبال ! ورفع الطائر الجبار السفينة الى مستواها المألوف من سطح الماء . وامالها على هذا الجانب ، ثم سواها في وضعها المتوازن ..

وقال ربان السفينة :

ـ نحمد الله الواحد القهار ... فقد نجونا من الغرق وكنا هالكين لا محالة !..

وتسرب الماء من داخل السفينة الى البحر ، وترك الطائر بعض الضوء ، ينتشر الى داخل المركب واستعاد الربان شجاعته ، فنظر الى شهاب الدين حيث كان ملتصقا بجناح الطائر ، وداعبه قائلا :

ـ عفريت انت ايها الولد ! لقد عرفت كيف تختار المكان

الامين ! .. لكن الطائر الجبار قد رضي عنا . فاهبط الى ظهر السفينه ، فقد عاد كل شيء كما كان .

وهبط شهاب الدين من مكانه ، وفي قلبه احساس غامض ، وفي صدره رائحة خفية ، وفي عينيه مشاهد غريبة مختلطة .

***

وتنفس الملاحون الصعداء ! فهذه هي اشعة الشمس ، تتسلل قليلا قليلا من بين ريش الطائر الجبار ، وهذا هو الطائر العظيم نفسه ، ينشر جناحيه ، ويرفع ذيله ، فيغمر اشعة الشمس كل شيء في السفينة ، ومعها تنتشر الثقة بالنجاة ويهتف احد الملاحين :

ـ جزاه الله كل خير !!.. ان هذا الطائر الجبار ، يتهيأ الان للطيران ، وسيترك السفينة لركابها !

وكانت وجوه الملاحين ، غبراء صفراء ، جامدة ، خائفة ، ذاهلة ، يائسة ، ولم تكن تشبه وجوه الاحياء !

وقبل ان يفيق الملاحون تماما من اهوال خطر الموت ، حدث ما كان جديرا بأن يعصر قلوب الرجال عصرا شديدا !

لقد رفع الطائر الجبار هذه السفينة مقدار الف ذراع فوق سطح الماء ، وزلزلها زلزالا عظيما عندما هزها ، ونفضها ، كما ينفض الانسان ثوبه المبتل بالماء !

ووقع البحارة ، بعضهم فوق بعض ، ثم تعثروا وهم يقفون ويهمسون :

ان الطائر يرتفع بالسفينة الى السحاب !

وكان الطائر ، قد اقترب من السحاب بالفعل ، واخترق طبقاته التي تشبه الضباب الرمادي ، اي القطن المندوف !

وارتفع بعد ذلك فوق السحاب ، بمقدار الف ذراع !

وجفت اجسام الرجال من الخوف وراح الرجل الاعرج الطيب.

يتلعثم بالكلام ، وهو يدور كالمخبول بين انحاء السفينة ويقول :

ــ ما تزال هناك خطيئة !

وما يزال هناك ذنب ! فهذا الطائر الجبار ، يعاقبنا الان على الذنب الذي لم نعرفه حتى الان .

وسأله الربـــان :

ــ ومن تظنه مذنبـــا .. !

قـــال الاعـــرج :

ــ ومن اظنه بريئا يا سيدي الربان ! ان ثلاثة فقط اعرف انهم ابرياء وهؤلاء هم شهاب الدين ، وانت وانا .. اما رجالك الاخرون ، فلا اعرف ايهم غافلنا ، وشرب الخمر ، أو لعب القمار ، او ارتكب ذنبا نحاسب عليه الان !

***

ولكن احدا لم يكن يهتم بالذنب والعقاب ! بل كان البحـــارة يترنحون ضائعين بين الخوف والشك وبين المشاغل البسيطة التي قد تطرأ على ذهن الانسان وهو يواجه الموت !

فهذا هو بحار محطم النفس يقول :

ــ لعلنا الان فوق بحر الهند ! او جزائر النساء ! ولعلنا عبرنا جزيرة جاوة ! ومن يدري لعلنا ندور فوق جزيرة سومطرة .

وكان شهاب الدين ، يرى امتداد العالم العجيب الغامض الى تحت ! وكان قلبه الصغير مشغولا بالذي سيحدث لهـــم بعد هذه الاهوال .

وقال الملاح الخبيـــث :

ــ لا تنزعجوا ايها الملاعين ! سنظـــل نطير في اعالي الجو مائة يوم اخرى !

وقاطعه ملاح اخر قائلا :

ـــ ثكلتك امك ! اخرس ! اهذا هو وقت العبث !

قال الخبيث :

ـــ ما اجملها من نهاية بين السحاب ! ومن يدري لعلنا نقابل في هذا الفضاء موكبا اخر للعذارى الطائرات ! فليس من العدل ان نجد عذارى على الارض ثم لا نجد عذارى بين السحاب !

وزمجر الملاح الاخر صارخا :

ـــ اخرس !

فقال الخبيث :

ـــ وقسما لو قابلنا العذارى الطائرات لذهبت معهن الى اخر الدنيا ! فالحياة هنا مريحة جدا ! لا اقزام ولا قرصان ولا اعرج ولا اعمى !

قال الملاح الاخر :

ـــ ولا طعام ولا ماء ايها الصعلوك !

وكانت حرارة الشمس اللافحة قد جعلت الملاحين يشربون الماء العذب جميعا ، وينزفونه عرقا !

وبدأ العطش الرهيب !

وبدأ معه جنون العطش !

واستدار الربان الى سعد السيرافي متوعدا :

ـــ سأقتلك هذه اللحظة اذا لم تقل لى اي ذنب اخر ارتكبت يا بن السفاح !

قال سعد السيرافي في ذلة شديدة :

ـــ لم اسرق غير هذه الدجاجة !

وصاح شهاب الدين :

ـــ سيدي الربان .. احذر فالدجاجه النحاسية تفرد جناحيها!

وكانت الدجاجة النحاسية تفرد جناحيها بالفعل قريبا من رأس الربان .. فتراجع خطوات وهو يقول :

ـــ قلبي يحدثني بأن هذا الوغد هو المذنب لا يزال !

واضاف في وعيد صارم :

ــ تكلــم !

واعترف سعد السيرافي وهو يتلعثم ويرتعد قائلا :

ــ اجل ! انا مذنب يا سيدي الربان ! وذنبي انى عرفت من الرجل الاعرج ان الاقزام يخافون من الشباك المصنوعة من الياف جوز الهند ! وصنعت شبكة منها ! وأسرت ثلاثة اقزام بها ! واخفيتهم في سرداب بجوف السفينة كنت صنعته اثناء وجودها في الميناء !

* * *

وادارت الاهوال والمفاجآت رؤوس الملاحين ، فكان كل واحد منهم يثرثر بما يخطر على لسانه من اخلاط الكلام !

وزلزل الطائر السفينة زلزلة عنيفة اخرى وهو ينقلها مــن بين مخالبه الى منقاره ! فقد امسك شراعها بهذا المنقار الــذي يشبه سواعد الاخطبوط العملاق !

* * *

واخذ الطائر يندفع بالسفينة اندفاعا جنونيا .

ولم يعد هناك وقت . . . فقد سرق الخوف ، كل زمن وميعاد .

ولم يعد هناك مكان للشجاعة . . فقد اغتصب الفزع قلوب الرجـــال !

وقال الرجل الاعرج لاهثــا :

ــ اسرع ايها اللص الغادر ، فأطلق الاقزام !

وفي محاولة يائسة مرهقة ، زحف سعد السيرافى ، الــى حيث اخفى الاقزام واطلقهم . .

وعندها ، أخذ الطائر الجبار يهبط بالسفينة ، يهبط حتى اذا

لمست السفينة صفحة الماء ، اطلقها .. تجري .. الى مستقرها ، واندفع الى اعلى ، طائرا في خط عمودي ، ثم مال بجسمه قليلا ، واتجه صوب الشمس . مرفرفا ، بجناحيه الضخمين . وكأنه « مارد » هائل مخيف !

* * *

وعندما استقر الهدوء قليلا ، نادى الربان كل رجل على ظهر السفينة ، ان يحضر اليه .. وقال لهم :

ـــ ماذا ترون في هذا اللص الفاجر الذي كاد يقتلكم جميعا ؟

قال واحد ، وواحد ، وعشرون :

ـــ لا بد من ان ندق عنقه بالسيف !

ولكن الرجل الاعرج ، قاطعهم قائلا في هدوء :

ـــ لا تقتلوا هذا اللص القديم واتركوا كل شيء .. لمشيئة الله الى ان نصل الى اول ميناء !

واحتج الملاحون ، بأنه ينبغي ان ينال سعد السيرافي جزاءه كامـــلا !

لكن الربان صرفهم حتى يتدبر الامر ! واكتفى بأن امر بتقييده بالسلاسل الثقيلة ! وربطه في مقدمة السفينة !

* * *

واقترب الرجل الاعرج من مكان شهاب الدين وهمس له :

ـــ سينال هذا الرجل عقابا هائلا ولكن ليس بأيدي الملاحين !

قال شهاب الدين سارحا بخياله :

ـــ كم تمنيت ان اظل معلقا في جناح الطائر الجبار وان امضي

معه الى حيث شاء فقد كنت مطمئن النفس ، وانا ملتصق بريش الجناح !

قال الاعرج :

— هذا لانك طاهر القلب !

وسأله شهاب الدين :

— ومن يكون هذا الطائر الجبار وكيف وقع فجأة على السفينة !

قال الاعرج :

— هذا الطائر الجبار هو الخادم الذي يرسله الرجل العجوز الذي قابلناه عند بحيرة العشاق !

لقد اطبق على السفينة لان سعد السيرافي ارتكب ذنبا عظيما عندما سرق الدجاجة النحاسية وعندما غدر بالاقزام الطيبين !

قال شهاب الدين :

— وما هي قصة الدجاجة النحاسية ؟

اجابه الاعرج :

— هى واحدة من اعاجيب الدنيا ، وغرائب العمران ! يقال انها موضوعة منذ آلاف السنين في جزيرة القمر ... وانها تفرد جناحيها مرتين كل سنة : مرة في اول موسم المطر ومرة في اول موسم الجفاف !

ولاحظ شهاب الدين ، ان الرجل الاعرج ، يغمض عينيه ويتحدث في فتور ويهمس :

— وهي نافعة لمن ينفع الناس !

واضاف :

— ويقال انها ستظل في كهفها الى ان يصل اليها الرجل الموعود !

وسأله شهاب الدين :

اي رجل !

— يقال انه سيكون انسانا بلا خطيئة ! بلا ذنوب ! وعندها ، ستطير الدجاجة النحاسية معه ، وترشده الى اسرار الدنيا كلها !

وتغيرت لهجة الاعرج فقال في خوف :

— انتبه يا شهاب الدين فالاهوال التى سنشاهدها بعد قليل اشد بكثير من الاهوال التى مرت بنا حتى الان !

وكان الربان ، قد وقف عند مقدمة السفينة وظلل عينيه بيده وتساءل في لهفـــة :

— ماذا ارى هنـــاك !

وكان يقف الى جواره هذا الرجل الخبيـــث الذي يسمونه الثعلب — فقـــال الثعلب :

— أرى موقعة هائلة بين سفن حربية وسفن اخرى !

قـــال الربـــان :

لعلها موقعة بين البرتغال وسفن العرب !

ولكن المرح قفز من كلمات الثعلب وهو يقول :

— سيدي الربان ! عوفيت وبوركت ! هذه موقعة تفوح منها رائحة الجواري الحسان ، والذهب الابريز ، وسن الفيل وريش النعـــام !

قـــال الربـــان :

— كفـــى عبثـــا !

— وتسلق الربان مكانا مرتفعا في مقدمة السفينة ، وفحص الافق جيدا بعينيه . ونادى :

— كل رجل يحمل سلاحـــه !

وعندما ادرك الربان ان بعض رجاله يتخاذلون صاح مـــن جديـــد :

— قلت لكم يا اولاد السفاح انهضوا الى السلاح !

قال البحار الخبيث وهو ينزل من مكانه :

— اجل ! فهذه هي الساعة التي يصيب فيها كل رجل مـــا

بسنحق ! انت ايها الاعرج ، ستنال ضربة على ساقك الاخرى ! فتهوى الى القاع وانت قاعد ! اما انت ايها الذئب ! فستنال ضربة على انفك الطويل !

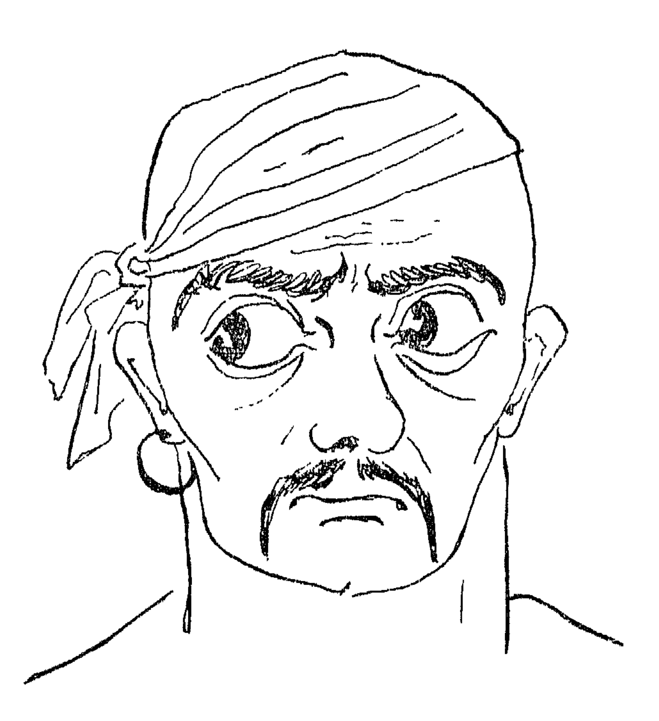
اما انا ! فسأملأ قبضتي بثياب جارية رومية واحملها على ظهري ! فاذا نجوت اتخذتها زوجة ، واذا غرقت ، ابتلعني الماء ، واخر ذنوبى انى اضم جارية حسناء بين ذراعي !

وصاح الربان :

ــ المقاتلون وراء المتاريس !

والنفاطة وراء انابيب النار اليونانية والمهاجمون يستعدون بالسلالم ، والخطاطيف ! والسيوف ! انظروا جيدا هذه السفينة المندفعة الينا ليست سفينة تجار ! وركابها لبسوا رجالا اطهارا ! انهم القرصان .. !

الحلقة السادسة



القرصان

ولما اسقط الطائـــر الجبـــار ، السفينـــة
((المنتصر باذن الله)) جـــرت السفينة بـــين
اسطولين يتقاتلان ! وظن كل فريق منهما ان
السفينة من السفن المعادية ، فانهالت عليها
السهام والقذائف من الجانبين !..

صاح الربان في منادي السفينة :

ــ انفخ في « البوق » نوبة اهل الهند ..

وكان بحارة السفينة قد استعدوا بالسيوف والتروس والقطاعات وانابيب النار اليونانية والخناجر والحراب والشباك وكرات القماش المبتلة بسوائل الحريق !

وقال الربان :

ــ انظروا جيدا الى هذا الجانب الذي تتحرك فيه السفن الكبيرة ! **انها سفن هندية وسنقاتل في** صفها .. اما هذا الجانب الذي تتحرك فيه المراكب الصغيرة ، و « القراقير » فسنقاتل ضده ، لانه الجانب الذي يعمل فيه لصوص البحر !

واحتل كل مقاتل مكانه المعلوم فوق ظهر السفينة « المنتصر باذن الله » وزمجر الربان صائحا في المنادي :

ــ اضرب نوبة القتال !.. واقتلوا كل لص يقترب من السفينة !



ولم يكن البحارة في حاجة الى صيحات الربان ، فقد كانت الدماء تغلي في عروقهم ، وكان اضطراب الماء ، وامتلأ الهواء بأدوات الحرب واهتزاز الريح بصيحات القتال . وصرخات الجرحى. قد جعلت هذه الرقعة من البحر كالغابة التى يتقاتل فيها قطعان الافيال والنمور ! فكل رجل في البحر ، يحارب حتى الموت ! فاذا كان من بحارة « المنتصر باذن الله » فهو يحارب الى اخر قطرة من شجاعته ، دفاعا عن حياته ، وحماية للبضائع الغالية التي تحملها السفينة .. واذا كان من القراصنه ، فهو يحارب الى اخر قطرة من وحشيته ، دفاعا عن حياته ايضا ، واندفاعا من حرفة القتل والنهب التي يعيش لها !

***

وكان اول امر اصدره الربان وهو يرى « قراقير » القراصنة تنتشر حول السفينة كأسماك القرش ، انه صاح :

ــ اطلقوا قذائف النار . !

واندفعت كرات النار ، تزغرد في الهواء وتسقط على قراقير القراصنة !

وكان البحار الخبيث الذي يسمونه « الثعلب » خبيرا في ضرب منجنيق السفينة !.. فكان يجهز القذائف بنفسه ، ويضعها في مكانها الدقيق ، ويشعل الفتائل ثم يطلقها ويرسل معها صيحته المعروفة :

ــ الطريق .. الطريق . ! افسحوا الطريق لعزرائيل .

وكان يقهقه بشدة ، عندما تسقط القذائف الملتهبة على القراصنة ! ثم صاح على شهاب الدين لكي يعاونه في اعداد القذائف ! وكان يقول له في غير ملل :

ــ تعلم هذه الحرفـــــة !.. فاللصوص لا يصلحهم الا نار الجحيـــــم !

***

لكن لم يكن الضرب الثقيل ، خير وسيلة للقضاء علـــى قوارب القرصان .. فقد كانت هذه « القراقير » سريعة خفيفة ، تنطلـــق كالسهام ، وتناور كالثعابين ، وتنزلق مثل كلاب البحر ، وتتحاشى ضربات أعدائهـــا .. ثم « تراوغ » وتلتصق كالخفافيش مصاصة الدمـــاء !

***

وكان الصراع بين السفن الكبيـــرة والقراقير يشبه الصراع المجنون بين الافيال الضخمة وفئران الغابة ، او الضفادع التي قد تدخل في خرطوم الفيل ، وتصل الى نافوخه ، فيصاب بالجنـــون ويدق رأسه في جذوع الاشجار الى ان يموت .

***

واقتربت قراقير القراصنة من سفينة « المنتصر باذن الله » ورمى بعضهم السلالم ذات الخطاطيف التي تشبك اسنانها في خشب السفن ، فيصعد عليها القراصنة ، ويفاجئون البحارة بالهجـــوم السريـــع !

واطلت رؤوس قراصنة كثيرين عند حاجز الخشب !

وكان بينها رؤوس صلعاء ، واخرى كثيفة الشعر !

ومد اول قرصان يده الى الحاجز ليقفز من السلم الى ظهـــر

السفينة .. لكن سعد السيرافى اندفع اليه ، وضربه ضربة هائلة بالفأس المفرطحة التي تشبه الساطور فتقطع يده ! وانقلب القرصان على ظهره ، ساقطا في الماء غاطسا لمدة غير قليلة ، ثم سابحا فوق سطح المـــاء .

وراح سعد السيرافي ، يقطع اجسام القراصنة ما استطاع . ويحمي جسمه بترس قوي ! ويشق طريقه بين حلقة القراصنـــة الذين كانوا قد صعدوا الى ظهـــر السفينه واطبقوا على سعـــد السيرافي .. وقد ظنوه ربان السفينة !

***

وكان البحار الخبيث ، قد اختبأ وراء احمال السفينة ، وهو يموء كالقط الوحشي !

وعندما اقترب من مخبئه ، قرصان طويل القامة ، ضربـــه الملاح الخبيث ضربة قوية على عظمة الساق ، فأوقعه على الارض ، ووثب عليه ، وجثم فوق صدره ، وراح يضربه بالمقرعة الحديديـــة كيفما انفق وهو يزغرد بالكلمـــات :

افسحوا الطريق لعزرائيل . !

***

وكذلك انشغل الرجال جميعا ، بالقتال المرير ، فانقلب ظهر السفينة الى برج بابل ، واختلط بحارته بالقراصنه ، واشتبك كـــل رجل في معركة فاصلة بين الحياة والموت !

وكان لصوص البحر نفسهم خليطا عجيبا من الناس ! يتحرك ويتشـابك وينفرج ، وينعثر ، ويقفز ، ويقـــع ويصيح ، ويضرب ، ويموت ! وكذلك كان بحارة السفينة « المنتصر باذن الله » ! ..

وانقلب ظهر السفينة الى سوق عامرة للقتل والذبح ، وسوق عامرة للسلب والنهب ، وسوق حاشدة للشجاعة المسعورة ، والخوف المجنون !

وكان القراصنة اشتاتا من البشر فاذا نظرت اليهم من اعلى رأيت رقاعا زاهية واسمالا بالية ، وجلودا لامعة ، ومعادن كثيرة! فقد كان فيهم الزنجى الاسود والقرصان الابيض ، واللص الاصفر، واللص الاسمر !

وكان فيهم طوال القامة كالفيلان وفيهم قصار القامة كالاقزام ، وفيهم القرصان البدين الذي يعلو صدره تديان كأثداء النساء !

وكان فيهم من « يولول » بالصراخ ومن هو اصم ابكم يرسل اصواتا مفزعة كفحيح الافاعي ! وكان منهم قراصنة يلبسون لباس الحرب الكاملة ، واخرون يغرسون السهام القصيرة في العمائم . وقراصنة يحاربون وهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم !

***

واصبح ظهر السفينة قطعة من الجحيم ، عندما اشتبك السلاح باللحم ، واللحم بالعظم ، والعظم بالسلاسل والحديد !

واصبح ظهر السفينة ، مقبرة لكل مروءة وعاطفة عندما كان الرجل يغمد خنجره في قلب اول عدو يقابله ، وعندما سقط الصديق صريعا تحت اقدام صديقه ، وعندما كان هذا البحار يقطع رقبة ذلك القرصان ، وهذا القرصان يشق صدر ذلك البحار !

لقد كانوا جميعا ، ينهشون بعضهم بعضا ، بلا تردد او تفكير !

وكانت رائحة الموت ، تدفعهم الى القتال من اجل الحياة !

وكانوا سكارى ، بغير خمر ، ومجانين بغير جنون ! ووحوشا بغير انياب ، واحياء بغير حياة وموتى بغير دفن !

وكان اكثر البحارة حركة اندفاعا ، سعد السيرافى والملاح الخبيث والربان الذي ظل يقاتل وهو يزمجر :

ـ لا تتركوا مكان الدفة والمجاديف !

واما شهاب الدين الصغير ، فقد دار رأسه بهذا التمزيق في الاجسام وانطوى في داخل حلقة القتال !

لكنه كان كالنمر الصغير ، يتحرك بذكاء وخفة !

وكان قرصان جبار قد وقع على ابيه الربان وشل حركته تماما !

وفجأة ، وثب شهاب الدين من مكانه واشعل كرة من القماش ، ثم اشعل بها شعر القرصان الطويل الكثيف ... وسالت المواد الملتهبه على جلد القرصان الجبار ، فقفز الى اعلى واسقط جسمه في الماء وغطس !

وعندما صعد الى سطح الماء من جديد كان « التعلب » قد اعد حجرا ووضعه في « المقلاع » وصوبه الى رأس القرصان وهو يصيح :

ـ افسحوا الطريق لعزرائيل ..!

وسقط الحجر ، على رأس القرصان فأرسله الى الاعماق !

***

وانهزمت الموجة الاولى من القراصنة !

لكن لصوص البحر كانوا يقاتلون ويغيرون بطريقة اغـــاره الامواج على الساحل !

فكانوا يرسلون فوجا من ركـــــاب « القراقير » ليفاجىء السفينه ، فاذا انهزم ارسلوا فوجـــا ثانيا من ركاب القـــوارب و « السنابيك » ثم ارسلوا ثالثا ورابعا ، الى ان يغرقوا السفينه وينهبوها او يأسروها ويسرقوا نفائسها ويأسروا ما يبقى حيا من رجالهـــا .

وهكذا ، استقبلت السفينة « المنتصر بادن الله » فوجا بعد اخر ، الى ان استطاع القراصنة ان يتمكنوا من المواقع الهامـــة في السفينه ، فأمسكوا بالدفة ونزلوا الـــى القاع حيث المجاديف ! وانتشروا فوق الساريه !

وأدرك ربان السفينة ان القراصنه لن يغرقوا السفينـــة ، وانهم يريدون ان يأسروها !

وحاول ان يخترق صفوفهم ، وهو يضربهم بسيفه ، ويدفعهم بترسه !

وكان شهاب الدين يحامي عن ظهر ابيه ، فكلما تحرك الى مكان ، كان شهاب الدين ، يثب اليه ، ويلازم اباه الربان !

***

وتسربل بعض البحارة بدم القرصان ، وغطى الدم وجـــه البحار الخبيث ـــ الثعلب ـــ وظل يقهقه ، مسعورا ، مخبولا . بينما كان الرجل الاعرج ، قد انطوى بعيدا ، فلما اقترب منه شهاب الدين ، سمعه يقـــول :

ـــ ما يزال هناك ذنب ! ما يزال علـــى السفينة خطيئة !

في هذه اللحظة تعرض الربان لمحنة شديدة ، فقد اصابته النبال في ساقه ، ووقع على الارض يتخبط في دمه ، ونهض اليه الرجل الاعرج ووقف يدافع عـن جسم الربان العاجـز الواقـع على الارض !

وفقدت السفينة قلبها الشجاع ، حين سقط الربان .

وكانت سفن الهند ، قد اقتربت من « المنتصر باذن الله » لتنجدها !

وكانت هذه السفن ، تؤلف اسطول حرب حقيقيا ، ففيهـا الطرادات التي تحمل الخيل ، وفيها الشواني ذات الاستحكامات ، وفيها الفلائك السريعة ، وعليها المقاتلون الكثيرون !

لكن سفن الهند كانت تضرب القراصنة بأدوات الحـرب الثقيلة ! وطاشت بعض كرات النار ، التي اطلقتها فابتعدت عن قراقير القراصنة وسقطت فوق شراع المنتصر باذن الله ، وفوق احمال القماش المقصب ، وريش النعام ، واشعلت النار فيها . وكانت نار الحريق ، اسرع من هجوم القراصنة ، وكانت اشـد فتكا وتدميرا ، من ضرباتهم !

ووثب البحارة ، كل في اتجاه !

وانقلب سطح الماء القريب من السفن ، الى رقعة متحركة سائلة من دماء القتلى ، وضربات الشجعان وغرغرة الغرقى !

***

وكان القراصنة الموجودون فوق ظهر السفينة ، كالشياطين لا يخافون النار فنهبوا ما استطاعوا من احمالها وحملوا مـن

استطاعوا ان يحملوه من بحارتها !

وكان بين الاسرى الذين وقعوا في ايدي القراصنه سعد السيرافي الذي اثخنه الجراح ، والملاح الخبيث الذي لطخ الدم وجهه وساعديه وكانت اخر صيحاته والقراصنه ، يلقونه في قاع احد هذه القراقير :

ـ اللعنة ! افسحوا الطريق لارى وجه عزرائيل !

***

وغرق بين الحطام والسفن اكثر من خمسين بحارا !

وانقذت السفن الهندية ، عددا اخر منهم !

وكان بين الذين انقذتهم سفن الهند ، الربان وشهاب الدين والرجل الاعرج !

***

وبينما كانت مصارع الرجال تتلاحق ، كانت سفن الهند قد استطاعت أن تهزم قوارب القراصنه وتشتت شملها تماما !

***

وتشعبت طرق البحر امام السفن والقوارب التي كانت

مشتبكة في هذا الصراع !

كانت قوارب القراصنة تتفرق كالاغربة السوداء ، ولكنها تتجه جميعا الى الجنوب ! بينما استأنفت سفن الهند ، طريق عودتها الى ساحل الهند !

***

وكان الرجل الاعرج قد شد رباطا قويا حول ساق الربان الجريح !

ومالت الشمس الى الغرب ، وجاء الليل ، واشتد الالم بالربان ! واصيب بشيء يشبه الحمى ...

وفي الليل ، راح الربان في غيبوبة ، وشهاب الدين مكوم الى جواره ، وعيناه كالنافورة ، تبكيان بلا انقطاع وصوته الممزق يقول :

— سيموت قبل الصباح

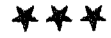
والرجل الاعرج ينهره :

— لا تكن جبانا ! فهذا هو الوقت الذي تمتحن شجاعة الشجعان !

وشهاب الدين يعيد كلماته الممزقة :

— ولكنه سيموت ، فالدماء تنزف من جراحه !

وتركه الرجل الاعرج ، ذاهبا هنا ، متوسلا هناك ! يريد دواء ومخرازا ، وقطعة من خيط ليخيط الجراح ، ويوقف النزيف !



وضغط شهاب الدين بيديه على الجرح من ساق ابيه وغمغم :

ـ لاتفارقني ! فمنذا بعدك يأمر الرجال ، ويقود السفينة !

وكان شهاب الدين ، قد احتوى وجه ابيه بين يديه ، وبدت له اللحية الكثيفة ، والوجه المستدير ، والعينان الغائمتان ، كنذير بأن كل شيء قد ضاع والى الابد !

وعندما عاد الرجل الاعرج ، قال في صوت حاسم :

ـ كفى بكاء ! سأخيط الجرح ! واسقيه هذا الدواء !

* * *

ومضت ساعة وساعة ، ويوم وليلة ، وسقاه الرجل الاعرج ، الدواء الموضوع في القارورة الفارسية وتوقف النزيف ! وافاق الربان قليلا ، فسأل :

ـ اين شهاب الدين !

قال له شهاب الدين :

ـ سلمت وعوفيت .. كيف حال سيدي !

قال الربان :

ـ واين نحن الان !

اجابه الرجل الاعرج :

ـ نحن على ظهر سفينة هندية وبعد يومين او ثلاثة نصل الى الساحل باذن الله .

* * *

ومضت السفينة الهندية ، على طريقها الموعود وتماثل الربان

الى الشفاء قليلا ، فأصبح يستطيع ان يتحدث ويطلب الطعام ! ويشرب نبيذ التمر !

ويقول لشهاب الدين :

ــ كنت كالنمر ايها العفريت !

ويقول للرجل الاعرج :

ــ كيف سلمنا من ايدي القرصان !

وقال الاعــرج :

ــ انقذنا بحارة هذه السفينة واميرها ! انه رجل شجـــاع كريم ! وقد زارك مائة مرة وانت في غيبوبتك ! واحضر لك هـــذه الجائزة الثمينة ! انظر :

انها ثياب من قماش الدبيقي الذي يوزن بالذهب عند تجار دمياط ! وهذا سيف ، لم يمسك به خليفة او امير من قبل ! ان مقبضه المرصع بالجواهر ، يساوي الف الف دينار !

وضحك الربان وهمس :

ــ لا تبالغ ..! فهذه هي سيوف الهند المعروفة !

واضاف الربان في حزن حقيقي :

ــ وماذا عن بقية الرجال !

قال شهاب الدين :

ــ غرق نحو من خمسين ، واسر اللصوص سعد السيرافي والملاح الثعلب ، وبقيـــة الرجال يعملـــون الان مـــع بحارة هذه السفينة !

وغام وجه الربان وهو يقول :

ــ مسكين هذا الثعلب الخبيث ! سيمزقونه تمزيقا فقد قتل منهم ثلاثة ! ومسكين سعد السرافي سيقتلونـــــه اشنع قتلة ! ولعلهم يحرقون يديه وقدميه ، وهو حي ، فهؤلاء اللصوص من

اعتى لصوص البحر !

***

والقت السفينة مراسيها في الميناء ، وكان الربان يسمع من حيث كان يرقد ، صيحات الواقفين في الميناء ، وحركة البحارة والمقاتلين .

وجاءه ربان السفينة الهندية فتحدث الى الرجل الاعرج بلسان اهل مدراس .. وقال له :

ـــ انقل الى سيدك الربان انه ضيفنا في السفينة الى ان يتماثل للشفاء .. وضيفنا في الميناء عندما يسترد عافيته ! واسأله : هل يريد امرا معينا ! فنحن مدينون له بالكثير ! وقل له ان امير بلادي سيعلم بأنه نجدنا في اعالي البحر ، وأضاع سفينته وفاء لنا .. فماذا يريد سيدك الربان !

قال الربان :

ـــ لا شيء ! الا ان يسمحوا لرجال المنتصر باذن الله ان يزوروني في اي وقت يشاؤون !

واذا حدثت معجزة ، وعاد الملاح الخبيث او سعد السيرافي، فاني اريد ان اراهما على الفور !

***

وحدثت المعجزة .!

فذات صباح ، سمع الربان صوت الملاح الخبيث ، وهو يقول :

ـــ سيدي الربان ! هانذا قد هربت من اللصوص !

وفتح الربان عينيه ولم يكن يصدق ما تسمعه اذناه وسأله

مهلوفـــا :
ــ انـــت !
ــ قال الخبيث :
ــ دعني اقبل صدر سيدي ورأسه ! اجـــــل ! لقد هربت بالطريقة الوحيدة التى اجدها !
قال الربان ، وهو يرتعش فرحا وانفعالا :
ــ وكيف هربت وما هذا الذي تغطيه بردائك !
وكان شهاب الدين يشهد هذا اللقاء المثير .
قـــال الخبيث :
ــ وجدت في جزيرة القرصان جارية رومية اعرفهـــا منذ سنين ! وكنت قد تزوجتها وطلقتها مرتين او ثلاثا !
وكان شيخ القراصنة ، يحتفظ بها في الجزيرة ! فلما رأتنى ! اعدت طريق الهرب لى ! وهربت معي في « قرقور » ظريف خفيف، تحت جناح الليل !
قال الربان ضاحكا :
ــ لك نصف هذه الجائزة ! خذ القماش الدبيقى !
فضحك الرجل الخبيث وقال :
ــ لو كان يصلح للنساء لاخذته ! فقد عادت معى هــــــذه الجارية الرومية ! وهى الان تنتظرنا في بيت انيق ، وهـــى تهديك يا سيدي الربان هذه الهدية !
وكشف رداءه عن الصندوق الصغير الذي كان في بطـــــن السفينة عندما اقلعت من مبناء الجنوب .
واضاف الرجل الخبيث معاكسا :
ــ واقسم لسيدى الربان اننا لم نفتحه ! فهل تسمح بأن افتح القفـــل !
ضحك الربان، كما لم يضحك منذ ان وقعت معركة اللصوص!
وقال له :

ـــ لا تتعب نفسك ! فلن يستطيع احد غيري ان يفتح هذا الصندوق ! الم تقع عيناك على هذه النقوش ! انها نقوش سحرية تحرس ما في داخل الصندوق !

قال شهاب الدين مأخوذا :

وماذا يا سيدي في داخل الصندوق !

قال الربان :

ـــ اشياء غريبة ! ستراها بعينك ـــ بعد ايام قليلة ـــ عندما استرد عافيتي وافتح الصندوق ! ويرى الرجال جميعا لماذا نجا الصندوق من النهب ؟ وما هي العجائب الموضوعه في الصندوق المسحور .!



الحلقة السابعة



سوق الجواري

« ومـــاذا في الصندوق المسحور ؟ » ..
هكذا تساءل البحارة وهم يجلسون حـــول
الربان ــ بعد ان شفى من جراحه ، وانتقل
من السفينة الى « خــــان » التجار بوسط
المدينة الهندية ..

وكان الربان والبحارة ، يعيشون في تلك الايـــام ، بقلوب يملؤها كثير من الفرح ، وقليل من الحزن ا واما الفرح فلأن امير هذه المدينة الهندية كان قد اجزل لهم العطايا والهدايا ... واما الحزن ، فلان البحارة كانوا حائرين لا يعرفون ماذا حدث لسعـــد السيرافي الذي اسره القراصنة .

وكان البحارة قد اشتروا ـــ ـــ من اسواق المدينة ـــ ثيابا حريرية ، وخناجرا ، وسيوفا ، وعمائما ، وعطوسا ، وقواريرا من المسك ، وقواريرا من الخمر المعتقة ... !

وكان الملاح الخبيث ، قد فتش في اسواق المدينة عن «لعبة» غالية الثمن ! فلما اشتراها ، عاد بها الى الفندق وعيناه تضحكان ، ونزع عنها الغطاء ، وعرضها بين يدي الربان وقال شهاب الدين في دهشة :

ـــ لمن هذه « العروس » العجيبة !

قال الملاح الخبيث :

ـــ انظر ! انها تحرك رأسها هكذا ! وشد خيطا فحـــرك رأسها ، ذات اليمين وذات الشمال ! ثم جذب حبلا اخر واضاف :

ـــ وهي تصفق كالاميرات !
وصفقت العروس بيديها !
وامطره الملاحون الاخرون بالاسئلة :
ـــ وكم دفعت فيها ؟
ـــ واي جارية تلك التي امرتك بأن تشتري لها هذه اللعبة ؟
وقال الملاح الخبيث انها هدية لبنت صغيرة مسكينة تنتظره، عندما يعود الى مينائه في الجنوب !

ولم يصدقه احد ، فقد كان الرجال يعرفون عنه انه « زير نساء » وانه لا يتعب نفسه كل هذا التعب الا اذا كان يريد ان يهديها لامرأة ناضجة .. فالرجل لم يكن يتعامل مع الاطفال الصغيرات .

وعاد البحارة يتساءلون :
ـــ ولكن يا سيدي الربان ! ماذا في الصندوق المسحور ؟
قال الربان :
ـــ فيه اغرب شيء ، واغرب حكاية !

واخرج من جيبه المسبحة الغالية التي اهداها له امير المدينة ، وكانت حباتها مصنوعة من الفضة المشغولة بسلوك الذهب وقال :

ـــ هذه المسبحة الغالية هدية مني لمن يعرف منكم اي شيء غريب موضوع في هذا الصندوق ؟ هلموا .. خمنوا .. ماذا في الصندوق ؟

وسارع بحار احمق ، فحك انفه على ظهر الصندوق وقال :
ـــ فيه قارورة خمر معتقة من مائة سنة !

وضحك شهاب الدين وبقية البحارة فهذا الملاح كان مشهورا بأنه « فأر خمارة » يشرب النبيذ صاحيا ، ويحلم بالخمر ، وهو نائم ويدق على بطنه الكبير ويقول له احيانا :
ـــ ستشويك النار بقدر ما شربت من النبيذ الرديء !

وقال الربـــان :

ــ سأعد مع الساعة الدقاقة خمسين دقه !.. واحدة ..

اثنتان .. ثلاث .. خمنوا ماذا في الصندوق .. اربع .. خمس .

قال الاحمق من جديد :

ــ فيه خاتم سليمان !

وقال ملاح اخـــر :

ــ فيه خلخال امرأة فرعون !

واعترض بحار من الواقفين :

ــ لا تكن جاهلا ...!!

ان امرأة فرعون لم تكن مثل نسائنا تلبس الخلاخيل ..! لقد كانت تلبس سراويل من رقائق الذهب !

وسكت البحارة حائرين ... بعض الوقت ... ثم رفـــع الخبيث صوته كمن يقول الحق ولا شيء غير الحق :

ــ في الصندوق صدار جارية حسناء من جواري السند ... فقد سمعت يا سيدي الربان ان الجاريـــة العاشقة في هذه البلاد تنسج صدارا غاليا ثم تلبســه في فصل الشتاء . فاذا جاء فصـــل الربيع خلعت الجارية العاشقة هذا الصدار ، وعطرته ، واعطته هدية للرجل الذي تحب !

ولكن الربان ، قال للملاح الخبيث :

ــ مجنون انت بالنساء ! وقد فقدت عقلك تماما !... الم تحمل هذا الصندوق على قلبك من جزيرة القرصان ،الى ساحل الهند ألم تلاحظ انه ثقيل !.. ام كنت مشغولا عنه بالجارية الرومية ؟

قال الملاح الخبيث :

ــ ما اشد غبائي هذه الايام ! لقد كان الصندوق ثقيلا حقا ! انه بزن عشرة ارطال على الاقل .

وسأله الربان ساخرا :

ــ وتظن ان فيه صدار جارية عاشقة ...!

قال الملاح الخبيث :

ــ ولم لا ؟ لعلها جارية وافرة الجسم ، ولعل صدرها مرتفع كهذا التل ، ولعل صدرها عريض هكذا !

وبسط ذراعيه حتى النهاية فأثار عاصفة من الضحك ... والتساؤل من جديد .

ــ حقا ... ماذا في هذا الصندوق المسحور ؟

قال الربان ــ اخر الامر :

ــ للصندوق حكاية غريبة وفيه شيء اغرب من الحكاية ! وسأحكي لكم هذه الحكاية العجيبة ...

في يوم من الايام جاءني تاجر من كبار تجار ساحل الزنج . وقال لي ان الجارية الصغيرة التي اعجبني ذكاؤها عندما رأيتها في بيته ، قد اختفت ! وانها خرجت ذات صباح لبعض شؤونها ولم ترجع الى بيت سيدها بعد ذلك ! وقد بحث التاجر عنها في كل مكان ... بحث عنها في « القيسارية » فلم يجدها ... وبحث عنها في « الصاغة » وفي سوق « العطارة » ، وعند تجار القماش وفي اسواق الكعك والحلوى ، والشواء ، وفي كل حارة ودرب . وسأل عنها اصحاب الحمامات ، والدلالات . واطلق المنادين ينادون بأوصافها ، وفتش عنها في القصور والبيوت وبين المدافن والقبور .. لكن احدا لم يدله عليها ... وكان التاجر ، يحبها اعظم الحب ، فحزن لفراقها اعظم الحزن !

وبعد ايام ، جاءه من يقول له ان « دثنة » ــ وهذا اسمها ــ قد خطفها القناصة الذين يبيعون البنات في اسواق الرقيق ! وان هؤلاء القناصة قد يبيعونها في سوق سوقطرة او لعلهم يبيعونها في سوق الجواري الكبير الذي ينعقد في الهند ، اثناء هذا الموسم .

ولما كان التاجر ، مسافرا الى سوقطرة ، وكنت انا مسافرا الى الهند ، فقد اعطاني هذا الصندوق وقال لي : ستفتحه عندما

نصل الى الهند فانظروا الان ماذا في داخل الصندوق المسحور !

***

وقرأ الربان كلاما غريبا بصوت خفيض ، ثم حك قفل الصندوق بخاتمه ، ودار فيه المفتاح ورفع غطاء الصندوق ! واطلت رؤوس البحارة معا ، وكأنها منتظمة في حلقة متقاربة وتوالت كلمات الدهشة والعجب .

ــ انها قطعة من الحجر الاسود الذي رأيناه في جزيرة القمر !

ــ بل هي كتلة من الرصاص .

ــ سيدي الربان يضحك منا ..!

قال الربان :

ــ هي بالفعل كتلة من الرصاص المسبوك !

وسأله البحار الاحمق :

ــ وما فائدة هذا الرصاص ..!

قال الربان :

ــ فائدته ان يحمله رجل احمق على صدره ويمضى به من جزيرة القرصان الى هذا المكان ؟

قال الملاح الخبيث :

ــ اجل ! انا هذا الحمار الذى حملوه صندوقا ثقيلا يعبر به البحار وهو لا يدري انه لا يساوى شيئا ... ليتنى قذفته في قاع البحر !

لكن الملاح الاعرج الذى ظل صامتا طول الوقت قال :

ــ اظن ان هذا الرصاص مسبوك على شىء نادر !

وقال البحار الاحمق :

ــ هذا الاعرج اشد حماقة منى !

لماذا يسبكون الرصاص على الاشياء النادرة ؟

فأجابه الربــــان :

ــ ليخدعوا به المغفلـــين !!

ان هذا الـــرصاص مسبوك على جوهرة غالية ، لا نقدر بمال ! لانها مجلوبة من جزيرة الاصنام ! ... وقد اعطاني التاجر هذه الجوهرة ، وقال لي اذا وجدت « بثنه » في سوق الجوارى الكبير بالهند ، فبع هذه الجوهرة ، وادفع الثمن الذي يطلبه تاجر الرقيق الذي يعرض « بثنة » في سوق الجواري الكبير .

وخفت ان تضيع الجوهرة مني ... فسبكت عليها كتلـــة الرصاص ! ووضعناها في الصندوق المسحور ، لينخدع به الحمقى والمغفلـــون ..!

***

واصبحت حكاية « بثنة » و « الجوهرة النادرة » هي حديث البحارة ، كلما اجتمعوا في « الخان » الذي كان ينزل فيه الربان !

وكان الفندق ، يجمع كل صنف وصنف ! ففى طابقـــــه الاسفل يسكن الصعاليك وتتكدس البضائع وتعيش دواب السفر، وفي الطابق الثانى سكن التجار وفي طابقه الثالث كبار الاعيان .

وفي رأس الفندق كانت هناك حجرات قليلة يسكنها رجـــال زاهدون اتقياء ..!

وكان الملاح الخبيث يقول عن الفندق :

ــ اعجب ما في هذا الفندق يا سيدي .. ذلك الرجل الذى يخطر على الارض وكأنه عاشق !

وكان الربان يقول :

ــ تقصد تاجر الرقيق ؟ انه يذكرني بشيء اكرهه !

وكان البحار الخبيث يسأل الربان :

— ولماذا لا تختبر هذا الرجل !

— لاني اكره الضباع ..!

ولكن الانتظار في « خان التجار » كان مملا للغاية ، وكان الملاح الخبيث ، ينتهز الفرصة ، للتقـــرب بـــين تاجر الرقيـــق والربـــان !

وشيئا شيئا ، انعقدت بينهما صداقة غريبة فكانا يسيران معا ، ولكنهما يسيران بطريقتين مختلفتـــين وكانا يجلسان معا . ويتحدثان ، ويضحكان ، ويأكلان ! وكل منهما في « ناحية » !

وحكى ربان السفينة لتاجر الرقيق حكاية « بثنه » وطلب اليه ان يساعده في العثور عليها ! وملأ التاجر خياشيمه بالنطوس وقال للربان :

— صفهـــا ... لي !

— هي فتاة خمرية طويلة عن اترابها ، وعمرها ١٦ عاما !

لكن تاجر الرقيق ، بسأل الربان :

— هل كان جسمها جيد البناء ..؟ واحس الربان ان لغة التاجر قد تغيرت ، وان رائحة كلماته ، قد اصبحت كرائحة اللحم النتـــن ..!

***

وكان تاجر الرقيق ، قد بدأ بمضغ « معجونا » مخدرا ، ويقـــول :

— صف لي جسمها عاريا .! فنحن لا نعرف الجواري وهن يلبسن الثياب ! هل كان جسمها ممتلئا ام كان فارغا مترهلا ! هل كان مدملجا ام كان معروقا ! هل كان جسمها مقسما بين صدر نافر ، وبطن ضامر ، وبقية هذه الاشياء التى نعرفها !

قال الربـــان يائسا :

ـــ لست ادري !

وانهى التاجر هذا الحديث قائلا :

ـــ سنرى !... بعد ايام قليلة يقام سوق الجواري الكبير هنا في هذه المدينة ، ونستطيع ان نأتي الى خبامي في السوق ، وسترى الكثيرات ، ولعلك تجد « بثنة » هذه ..!

***

وذهب الربان ومعه الملاح الخبيث ـــ لا غير الـــــى سوق الجواري ـــ وكانت السوق عبارة عن دائرة من الارض الترابيـــة المفروشة بالبسط هنا وهناك والتى تقوم على جوانبها خيام زاهية وباهية ، وتفوح منها روائح طيبة وكريهة !

وكانت اصوات البيع والشراء ، تشبه الطنين العالي ..

ولاحظ الربان ان الزحام يشتد شيئا فشيئا ! امام خيمة صفراء زرقاء !

وقال له الملاح الخبيث :

ـــ لبست هذه الخيمة غايتنا يا سيدي !

فسأله الربـــان :

ـــ وكيف عرفت هـــذا !

ـــ بأنفي يا سيدي الربان ! فأنا خبير برائحة الاماكن التي توجد فيها الجواري ! ان غايتنا هناك عند هذه الخيمة الكبيرة !

***

وحقا ، كانت تلك الخيمـــــــة ، الكبره هى خيمة التاجـــر « فيروز » !

وكان الزحام امامها شديدا ! وكان المنادون يقفون هنـــا

وهناك ، فوق اكوام من القماش ، ويزايدون على البضائع !
وبعد ساعة او نحوها ! مد بعض اعوان « فيروز » غطاء فوق الارض التي تنبسط امام خيمته ! وهيأوا مكانا عاليا — بعض الشيء — الى جوار باب الخباء !
ودق احد المنادين ناقوسا نحاسيا صغيرا ، وهو ينادي :
— قماش ابو قلمون يباع في الصباح ! او قلمون في الصباح ! افسحوا الطريق لرؤساء التجار ..!

***

وخرج من باب الخباء خمسة او ستة رجال سمان ، عراض ، طوال ، قصار ، بيض ، سود ! وكانت الوان الذهب والجوهر ، تلمع في ثيابهم ، في هذا الموضع وفي ذاك المكان !
وكان الربان قد جلس منزويا والى جواره الملاح الخبيث الذي همس له :
— الان سيخرج صاحبنا فيروز !
وخرج فيروز من الخيمة كأنه سلطان .. كأنه امير السلاطين .. كأنه ملك الملوك ! فمن حوله عشرة من الرقيق او عشرون ، وبين يديه اخرون وعلى مقربة منه ينادي رجل عالى الصوت ، قبيح الوجه :
— سنبدأ سوق الجواري ! سنبيع الواحدة من هذه الحوريات بوزنها من الفضة ! كلا ؟ سنبيعها بوزنها من الذهب ! سنبيعها بنصف وزنها من الجوهر ! انهن اجمل الجواري ! وكلهن مضمونة ! هذه جارية طرية ! جارية يعشقها ملك الجن اذا رآها ! ويسقط تحت الارض اذا شاهدها اسمها « وردة » ! وهي وردة ندية طرية ! انظروا انها تساوي الف الف دينار !

وخرجت من باب الخيمة جارية خائفة ، ملفوفة في ثوب من قماش ابو قلمون ! وبدأ الرجل يلمس ثوب القماش بأصابعه وينادي :

— وغدا نبيع من هذا القماش ! نبيعه بالوزن ! انه مصنوع في بلاد بعيدة ! من خيوط لا يعرفها احد ! على انوال لم يستخدمها احد .. قماش صنعته اصابع الجان ! وهذه وردة ! هذا صدرها !

واسقط الرجل الثوب عن صدر الجارية فسقط وتجمع عند يديها ، وظهر صدرها عاريا ! والرجل يولول :

— عامر هذا الصدر ! عشرة الاف دينار !

وهذا هو وسطها !

واسقط الثوب عن الوسط وراح يولول :

وهذا بعشرة آلاف دينار !

ثم اسقط الثوب واضاف وهو يولول :

— وخمسون الف دينار !

واسقط الثوب الى ساقيها وقال :

— وقدماها ببقية الالف الالف !

واصبح جسمها عاريا ، لا يستر اسراره غير غلالة قصيرة للغاية .

وصب الرجل قارورة من عطر على هذا الجسم وقارورة من زيت ، واضاف :

— بالف ... الف ...!

وكان الربان ، قد ضاق شيئا بما رأى وسمع .. وهو الذي تردد عشرات المرات من قبل على اسواق الجوارى والعبيد ! لكنه يقف هذه المرة ، بعد ان نجا من الموت والاهوال ، بشعرة رأس واحدة — كذلك كان يفكر لنفسه !

وبيعت جارية وجارية ، وامرأة في الاربعين ، وزنجية فحلة ، وصبية صغيرة ، وبنات ابكار ! ودق البيع ، في كل مرة ،

قلب الربان ، واعتصره ! ومزقه وناقشه الحساب .

وانسحب الربان ، بعد قليل ، مع الملاح الخبيث . وقال له خذني الى اي مكان تشاء .

قال الملاح الخبيث :

ـــ اذا شاء سيدي اخذته الى قصري !

وضحك الربـــان :

ـــ قصرك انت ؟!

قال الملاح الخبيث :

ـــ اجل ! ولم اقل لك انى وضعت الجارية الرومية في قصر جميل !... سنذهب هذه الساعة الى القصر !

***

وسارا معا ، من ساحة السوق ، الى الدروب الضيقة ، ومنها الى خارج المدينة ، وقال الربان حزينا وهو يصعد الطريق :

ـــ لابد ان قصرك فوق السحاب !

قال الملاح الخبيث :

ـــ اجل ! انه فوق اعلى تل في المدينة ! ... تفضل يا سيدي لقد وصلنا الى القصر !

وضحك الربان من اعماق قلبه ، فقد كان هذا القصر ، كوخا متواضعا ، مبنيا من عيدان الغاب ، واغصان الشجر ، والطمى !

وكان النهار قد مضى ، وجاء الليل !

وجلس الربان وحده ..

حزينا ماخوذا ..!

وكان الملاح الخبيث ، قد غاب ساعة داخل الكوخ . ثــم جاء يحمل الطعام ويعد المائدة ، ويدعو ربان السفينة الى الطعام قائـــلا :

ـــ وضعنا توابل الهند الحريقة هنـــــا .. وتوابل جـــاوة الشهية هناك بجوار الشواء .. ولن يعترض سيدى الربان على

ان اضع هذا الشراب الملعون بجواري !. انهـا قوارير النبيذ وسأحمل ذنبها وحدي .

وكان واضحا ان الملاح الخبيث قد شرب داخل الكوخ ارطالا من الخمر !

وسكب القمر ضوءه على المكان والمائدة !

وبدأ الريان يأكل طعامه ، والملاح الخبيث يشرب ارطالا اخرى من النبيذ !

وصاح الملاح الخبيث :

ـــ يا رمانة ! اسمعينا صوتك الجميل !

ومن وراء باب الكوخ ارتفع صوت رمانة ، كصوت البلابل ... كصوت الاوتار الشجيـة .. وصوت همسات العشاق !

كان فاترا ، كان هامسا ، وكان يرتفع في حنان ! وغنت رمانة اغنية من شعر ابن ابي ربيعة ! فهزت الريان هزا عنيفا ومد يده ـــ بغير ارادة منه ـــ الى الكأس ، وشرب كأسا ثانية وثالثة ! وملأ صوت رمانة صدره ، وملك عليه قلبه ، وزحم عليه همومه ! وارسل الدموع من عينيه .. فهذه الاغنية ، نفسها هي التي كانت تغنيها له ام ابنه شهاب الدين قبل ان تموت !

وقال الريان :

ـــ اليك يا رمانة !

بحق هذه الليلة اعيدي علينا هذه الاغنية مرة ومرة ! حتى تشق الفجر ثياب الليل ، وتنزف العين كل دموعها !

وكانت دموعه تغمر وجنتيه ولحيته ، وتبل صدره !

وغنت رمانة ، هذه الاغنية مرات ! ونادها الملاح الخبيث وقد اقترب الفجر :

ـــ يا رمانـة ! شقي ! الستار ! وهاتي معـك العود والجواري !

وخرجت رمانة كالقمر ، تتشح بوشاح بديع ! وتضم الى

صدرها عودا مرصعا بالاصداف النادرة ! وجلست في مكان غير قريب منهما !

وهييء للربان ان حولها جاريتين صغيرتين ! فقد كان سكرانا لا يميز الاشياء جيدا !

وناداها الملاح الخبيث :

ـ زيدينا من الغناء ! فقد شارف النبيذ النهاية !

وغنت بأصوات متفرقة ! وغنت بعدها الجارية الثانية بصوت شجـــي !

واعطت رمانة العود للجارية الثالثة ..

ولمست الجارية الثالثة اوتار العود فأيقظت الربان قليلا من ضياع الخمر !

وعندما ارسلت صوتها بالغناء ، سقط الضياع تماما بعيـــدا عنه ! وهييء اليه ان هذا الصوت هو صوت فتاة يعرفها .

وقــــال :

ـ اقتربي يا جارية ولا تخافي !

لكن الملاح الخبيث المخمور اعترض صائحا :

ـ لن يحدث هذا ابدا !

وقال الربـــان :

ـ ثكلتك امك ! قلت اريد ان ارى وجهها جيدا !

ونسى البحار الخبيث والربان كـــل شيء ، فقد كانا ضائعين بفعل الخمر .

واشتبكا معا ... والربان يقول :

ـ اريد هذه الجارية !

والبحار الخبيث ينازعـــه .

ـ لن تلمس ثوبهـــا !

ويزمجر الربان ، وهو يدفع البحار الخبيث بعيدا :

ـ قلت لك انها لي !

وسحب الربان سيفه ، وسار يتعثر صوب الجواري ... ووراءه الملاح الخبيث يتعثر مثله ....

وامسك الربان بوجه الجارية الثالثة الخائفة ، وجذبها الى مكان مضيء بنور القمر واطلق صيحته العالية .

ــ انهــا « بثنة » !

ثم دفعها الى الوراء ، وراح يبعثر الكلام :

ــ لن نهربي هذه المرة ! لن يخطفك القناصة ! انت هنا في حماية هذا الصارم البتار !

***

وفي الصباح افاق الربان واستعاد ــ من ذاكرته المرهقة ــ وقائع الامس !

وعندما اقبل عليه الملاح الخبيث ، ضحك الربان معتذرا :

ــ لا تحسب علي ليلة الامس فقد كنت ممزقا حزينا ...!

ولكن قل لي من ابن اتيت بكل هؤلاء الجواري ؟

اجابه الملاح الخبيث معتذرا ساخرا :

ــ اغفر لي اني خدعتكم عندما قلت لكم ان الجارية الرومية هي وحدها التي هربت معي من جزيرة القرصان ! فالواقع اني هربت مع ثلاث جاريات ، وليست رمانة وحدها ! .. والان ماذا سيصنع سيدي الربان بالجوهرة النادرة !

قال الربــان :

ــ اعرف انك تريدها لنفسك لانك تملك « بثنة » لكنــك سرقتها ايها الثعلب الماكر والجوهرة امانة في عنقي ، لا ادفعها الا لتاجر رقيق وفي نظير ان اشتري بثمنها هذه الجارية « بثنة »

قال الملاح الخبيث :

ــ اذن نعقد صفقة عادلة ! اتنازل عن الجارية بثنــة في

مقابل ان ننفذ سيدي الربان رغبتي بالنسبة للجوهره !

ــ هذا عهد بيننا ! وماذا تريد ان تصنع بالجوهره الثمينة !

قال الملاح الخبيث مفكرا :

ــ اجل ! ماذا يجب ان نصنع بهذه الجوهرة ؟



الحلقة الثامنة



الشباب والبحر والنجوم

«لو عرف « شهادب الدين » كم احبه ٠٠»
وكم اخاف عليه ٠٠؟ وكم افكر فيما ستصنعه
الايام به ٠٠؟ لافسده هذا الحب حقا !٠٠٠
فقلبي يمتلىء ٠٠ ارى شهاب الدين ، وقـــد
اصبح فتى يطاول الرجال بجسمه ٠٠ فأخشى
عليه فتنة الشباب ! ثم اتصور انه كبر وصار
« ربانا » فأخاف عليه من سطـــوة البحـــر
الجبـــار ٠٠؟

بهذه الكلمات وغيرها كان (الربان) يحدث الملاح الخبيث ــ عندما يخلو به ــ في الفندق القائم في وسط المدينة الهندية .

وكان الملاح الخبيث يستغرب هذا الحديث ويظن ان ربان السفينة ، قد اصيب (بجراح) في عزيمته ، كتلك الجراح التى اصابت عظام دماقة في المعركة التي دارت بين البحارة والقراصنة!

ولكن ما اشد سطوة الايام على الربان وابنه شهاب الدين ؟

***

كان الفتى يحس في تلك الايام بميلاد شيء غامض في قلبه وجسمه ..!

شيء لم يعرف له مثيلا من قبل .. فقلبه (يترنح) خافقا ، مشتاقا ، خائفا ، حالما .. وصوته قد اصبح عريضا خشنا .. وجسمه قد صار ثقيلا .

وقد بدأ (ميلاد) هذا الاضطراب في قلبه وجسمه منذ

حين .. لكن الايام الاخيرة ، زادته ، زيادة كبيرة .. فذات صباح تركه ابوه في (الكوخ) الذي اقامه الملاح الخبيث ووضع فيـــه الجواري الهاربات معه من جزيره القرصان !

ويومها قال الربان للملاح الخبيث :

ــ اياك .. ان نعلم شهاب الدين الخطيئة !

وضحك الرجلان ، وهما يهبطان الارض المرتفعة ، ويتجهان الى قلب المدينة .

وجاءت الجارية الصغيرة « بننة » في ردائهـــا الوردي ، الاصفر ، الابيض ! وقالتلشهاب الدين :

ــ هل ستبقى معنا في يومنا هذا ؟

وكانت (بثنة) خفيفة الحركه ، كالغزال .. واضافت :

ــ هل رأيت الجانب الاخر من التل ؟ هناك (جدول) مياه عميق نحيط به اعشاب عالية ، وكأنها تخفيه عن العيون ..؟

ولم تترك الجارية الصغيرة ، فرصة لشهاب الدين ، لكى يقول رأيه ، بل سحبته من يده .. وعندما تلامست الايدي ، انتفض من اصابع قدميه الى قمة رأسه .. وجاش صدره بـــدفء مفاجـــيء !

وقالت (بثنة) وهى تدفعه دفعة قوية :

ــ حذار ! من ان تقع !

ثم اطلقت ضحكة ندية حلوة ، وراحت نقفز ونجري ، وجهها الخمري ، بلامس اطـــراف الاعشاب الطويلـــة ، فترسل (آهات) دافئة وتخلص شعرها الطويل من الاعشاب التى كانت بلامس كتفيها !

ومضى شهاب الدين ، مأخوذا ، يجري ، وهو يهبط التل الى الجدول .

وعندما وصلا الى الارض المنبسطة على ضفة الجدول ، امسكت (بثنة) بيده للمرة الثانية ..

وتوقفت كل حركة وكل صوت ! وكانت يـــداه كلتاهما قد استقرتا في يديها ، وعيناه كلتاهما تنظران الى عينيها ..!

ودفعته (بثنة) الى الوراء بغـــير سبب ، وهي تقول ضاحكـــة :

ـــ لا تلمس ثوبي ..! فالملاح الخبيث سيعود بعد ساعة !

واطلقت (بثنة) لنفسها العنان ، وهي تتحرك هنا ، وتتحرك هناك ، تمسك بطرف ثوبها وتنشره في الهواء وتدور حول نفسها . وتضحك .

لكن شهاب الدين كان في الحقيقة مجذوبا اليها مسحوبـــا نحوها ، كأنه سفينة جذبتها احجار المغناطيس !.

وملأت (بثنة) قبضتها من ثوب شهاب الدين وامرتــــه قائلـــة :

ـــ ستجلس هنا ..! وسأجلس انا هناك ..!

واشارت الجارية الى مكان مرتفع قليلا من ضفة الجدول .. وسبقت شهاب الدين الى الجلوس ، وشمرت ثوبها وعرت ساقيها، وانزلتهما في الماء واخذت تحرك الماء بقدميها كما لـــو كانت طفلة « شقية » .

وكان شهاب الدين ـــ لم يزل ـــ مأخوذا حائـــرا .. يفكر لنفسه :

ـــ لماذا تفعل الصبية هذا ..! وقالت له (بثنة) :

ـــ اجلس وظهرك مسنود الى ظهري ..! وسحبته من ثوبه واجلسته بحيث يكون ظهرها ملاصقا لظهره ..

ولم يعد شهاب الدين يستطيع ان يعترض .. فظل جالسا كما شاءت الجارية !

وكان النسيم يلفح وجهها، فيحمل منه اريج العطر الثقيل الذي كانت تضمخ به ثوبها ..!

وظل جسمه (يترنح) في مكانه ! وكانت الجارية هى التى

تتكلم بلا انقطاع .. وكانت هي التي تغنى بصوت واطىء دافىء !
وكانت هي التى تصفق احيانا بيديها !
وابتعدت قليلا .. واستدارت اليه كما لو كانت (قطـة) برية وسألته وهي تضحك :
ــ ماذا يقول ابوك عنك ..!؟
ولم تنتظر منه جوابا .. بل استرسلت في حديثها ..
ــ يقول انك عفريت ! ولد شقي عفريت ! لقد سمعته باذني وهو يتحدث عنك الى الملاح الخبيث .. ويقـول ان شهاب الدين جزء من لحمي ودمي .. وهو عفريت مثلي عندما كنت فتى يافعا !.. كم عمرك الان ؟
قال شهاب الدين :
خمسة عشر عاما .. ستة عشر عاما .. لا ادري !
ــ ولم تعرف جارية قبلي ؟..
واختلط الكلام في حلقه .. وترنح الدم في عروقه !
وعادت الجارية تقول :
ــ انت عفريت شقي !.. تعال من هنا ..!
وسحبته من ثوبه ، وجعلته يعري ساقيه ويجلس بجوارها، ويدلي ساقيه في الماء .
وعندما اصطدمت قدمه بقدمها في الماء صرخت قائلة :
ــ ابتعد عني ..!! واحذر ان تلمس ثوبي ..! فأنت ولد عفريـت !..
وراحت تقذف الماء ، وتداعبه ، في اكثر من اتجاه ، وملأت يديها بالماء ثم قذفته به فابتل قميص شهاب الدين وغضب فقال لهـا :
ــ كفى عبثا ايتها الجارية الملعونة !
قالت في دلال خبيث :
ــ ابوك قال عنك انك ولد عفريـت شقي ! وسيرى ان

قميصك مبتل عندما تعود الى الفندق ! واذا بقيت معنا رأى الملاح الخبيث انك تلبس قميصا مبتلا .. وسيسألك : كيف وقع الماء على قميصك وستقول له : امطرت علي السماء انا وحدي !

ونهض شهاب الدين واقفا ، وضربها بيده في كتفها وصاح غاضبا :

ـــ كفى .. فأنا اعرف انك جارية ملعونة !

واستدار ليمضي بعيدا عنها ، لكنها لاحقته بالحديث ، وهى تسير وراءه :

ـــ اتعرف انت بماذا يذكرني ابوك ..؟

قال شهاب الدين بلهجة قاطعة :

ـــ لا شأن لك بأبي !

وردت الجارية وهي تسبقه وتشق طريقها بذراعيها بين الحشائش الطويلة :

ـــ تقول هذا لانك تخاف مني ! انت ايضا تخاف من ابيك ! أنت تحبه حبا عظيما .. وهو يتحدث عنك كما لو كنت طفلا رضيعا .. وانا ايضا احب اباك الربان .. لكنى لا اخاف منه !.. سأقول لك ما حدث في اول ليلة رأينه فيها !.. كان يشرب النبيذ مع الملاح الخبيث وعندما سكر ، خرجت انا والجاريتان من الكوخ، وغنينا اغاني خمرية ! والناس يقولون لي : ان لون وجهك خمري يا بثنة !

وابوك سار الى ، وجذبنى من شعر رأسي ، وقرب وجهي الى ضوء القمر .. وفي تلك اللحظة احسست انه (نمر) ولكنه نمر لا يؤذي النساء ! لقد فحصني وهو سكران ، وكان يحملق في وجهي ، ثم تركني وابتعد عنى ! تماما مثلك انت ! هل انت خائف لا تزال !

وكانت الجارية تلقي بهذه الكلمات تباعا وكأنها تحفظها عن ظهر قلب .

وكان شهاب الديـن يريد — في قرارة قلبـه — ان يستمر حديثها .. وعادت تعاكسه :

— ولم نعرف جارية قبلـي !

قال شهاب الدين غاضبا :

— كفى ! قلت انك جارية ملعونة !

وسألته الجاريـة :

— ستة عشر عاما ولم تعرف جاريه .. قبلي ..!

ولسبب لم يعرفه ، سألها شهاب الدين :

— وانت من علمك هذا الكلام !

ضحكت الجارية وقالت :

— سوق الجـواري .

واضافـت :

— وانا لست صغيرة كما تظـن ! لقد بلغـت الخامسة والعشرين .. ولكن سيدي التاجر خدع اباك وقال له انى ابنة اربع عشرة سنة ! اتعرف لماذا ؟ لان سيدي التاجر يريد ان يبيعنى بوزنـي مـن الفضـة !

ولهذا السبب كان يقول للناس انني جاريـة طفلـة وانه يحبنى ، وانه لا يستطيع ان يفارقني ! وانني خمرية اللون ! ولهذا السبب ايضا ، دفع بي الى جارية عجوز فثقفتني بثقافة الجواري الجميلات ، وعلمتني كيف اعاكس الرجال ، ثم دفع بي الى شيخ من شيوخ الموسيقى فعلمنى الغناء ، ثم دفع بي الى معلم فعلمني الشعر ! وكان سيدي يقول مزهوا : انظـروا ! هذه الجارية الصغيرة ، تعرف كل شيء في الدنيا .

ثم اطلقت الجارية صرخة مذعورة هزت قلب شهاب الدين ..

وقالـت :

جرحتني الاعشاب !

وكان الدم يسيل على وجنتيها بالفعل !وشعر شهاب الدين ،

ان هذه الشيطانة ، طفلة مشاكسة .. فقد جلست تموء كالقطة..

وقالت له في لهجة مختلفة :

ــ كنت اريد ان اراك قبل ان القاك ! كنت افكر في فتى طويل عيناه مبرومتان كعينيك ! جبينه مرتفع كجبينك ! فتى ام يعرف جارية قبلي ! قل لي انت : هل ستكون فارسا .. ام ملاحا .. ام تاجرا .. ؟

قال شهاب الدين :

ــ لا ادري !

ومدت يدها نحوه .. وملأت قبضتهامن صدره .. ثم تركته !

وكان شهاب الدين حائرا مضطربا خائفا .

وتذكر على الفور صوت ابيه وهو يقول له منذ ايام ..

ــ يا شهاب الدين ! لقد انضجتك هذه الرحلة ذات الاهوال فصوتك تغير .. واصبحت رجلا الان !فادفع عن نفسك الخطيئة ما استطعت ! ان للخطيئة رائحة يشمها الرجال الكبار .. وانا اشم رائحة الخطيئة عندما انظر في عينى اي رجل ..!

ونفرق الاثنان ، قبل ان يصلا الى الكوخ .. وانتهى هذا اللقاء الاول ، الغريب .. ولكنه في الحقيقه لم يترك شهاب الدين ابدا ..ففي تلك الليلة ، نام بجوار ابيه ، مفتوح العينين .. وصحا الربان اكثر من مرة ، ووجد شهاب الدين صاحيا .. فقال له في حنان :

ــ امريض انت !

وقال له شهاب الدين : كلا !

ولم يصارح شهاب الدين اباه بهذه الاشياء التي كانت تخطف النوم خطفا من جفونه ! ولم يقل له ان صورا متباعدة ، تسلبه الراحة لانها تخطر لناظره ، وتدور في دوائر ، فيبدو بينها وجه الرجل الاعرج الذي اراه الاقزام ومدينة القمر .. ووجه

سعد السيرافي الذي كان شريرا قاتلا ، والذي مزقه القرصان عندما وقع اسيرا في ايديهم .. ووجه الثعلب الخبيث الضاحك دائما ! ووجه (بثنة) وهي تموء كالقطة الجريح !

***

ومنذ ذلك اللقاء وقلبه يترنح في كل لحظة وفي كل غمضة عين وابوه يسأله كالعادة :

— امريض انـت ..؟

وهو يقول كالعادة ايضا :

— كلا !ياسيدي !

ويعود ابوه ينصحـه :

— نحن يا بني كالسمك ! نمرض ونموت اذا تركنا البحـر ! فاذهب الان الى الشاطىء وامش مقدار ساعة ! واملأ صدرك برائحة البحر واملأ عينيك بامواجه اللاهبة !

***

تسلل شهاب الدين ، من الخان عند الغروب ، وراح يمشي وحده على الشاطىء تاركا نفسه للبحر وغروب الشمس .

واطال المشي على شاطىء البحر ، حتى نزل الليل !

واخذت النجوم ترتعش في مسارها ووشوشة الماء تغمره بأصوات خفيـة !

وقلبه يفيض بالكلام ، الذي لا يصل الى شفتيه ..

هذه هي النجوم الثابتة التي ترشد الملاحين في رحلاتهم ، وهو يعرفها تماما .. وهذه هي المياه التـي تغدر بمن يجهل اسرارها ! لكنه يعرف الكثير عنها ! فقد علمه ابوه اسرار الملاحة

منذ ان كان طفلا في السابعة ، وعلمه شيوخ الملاحين اسرار البحر ، وقراءة كتب الملاحة القديمة ، وعلموه القصص ، واسمعوه الالفاظ البذيئة ! وكانوا يقولون له :

ـ لا تفزع من هذه الكلمات فهي لغة البحر !

لكن اباه كان ينصحه دائما بأن يكون صالحا ، وان ينجو بنفسه من الخطيئة !

وكان يقول له دائما :

ـ اعرف اسرار الملاحة اولا واسرار البحار اولا واخيرا !

حقا ما أشد سطوة البحر .. ولكن ما اشد سطوة النساء ايضا .. فلماذا لا يعرف اسرار الجواري ..!

لماذا لايزور بثنة مرة ومرة .. ويقول لها :

ـ اسمعي جيدا .. سأخطفك هذه الساعة !

واذا حدث ان قال لها هذا ، فانها قد تضحك هذه الضحكة المشاكسة وترد عليه قائلة :

ـ وما الذي يمنعك من خطفي الان ! هلم .. جرب !

واذا قالت له هذا ، فانه سيشدها من نطاقها .. ويهرب بها .. بعيدا ، بعيدا !

* * *

وكان شهاب الدين ، قد وصل الى مشارف المدينة ، فوجد الرجل الاعرج في انتظاره ..

وبدون ان يسأله اين كنت ، قال الرجل الاعرج :

ـ الربان ! ارسلني لابحث عنك ! فقد اطلت الغياب ! لكنني اعرف ماذا حدث لك !

قال شهاب الدين :

ـ وماذا حدث لي ؟

قال الرجـــل الاعرج :

ـــ انت وهذه الجارية (بثنة) .

قاطعه شـهـــاب الديـــن :

ـــ اي جاريـــــــة !

قال الاعرج في هدوء :

ـــ انا اعرف كل ما حدث بينكما .

وربت على كتف شهاب الدين وقال له :

ـــ وافهم لماذا لم تنم ليلة امس !

وستقول لابيك كل شيء !

وفزع شهاب الدين كل فزع ! لكن الاعرج قال :

ـــ بل سأقول له انا الحقيقة !

قال شهاب الديـــن :

ـــ لا تفعل والا فقدت صداقتي !

***

وفي الصباح اجتمع شمل الملاحين حول الربان ، وعـــرف شهاب الدين أن اباه سيبيع الجوهرة النادرة ويشتري بجـــزء من ثمنها سفينة هندية !

واعتصر الكلام قلبه ! فكيف يجوز ان يبدد ابوه هده الامانة التي اودعها عنده التاجر !..

وأحس بالانقباض والخوف .. ولاول مرة في حياته صارح اباه ـــ بعد انصراف الملاحين بمخاوفه ..

وقـــال لـــه ابـــوه :

ـــ اصبحت رجلا تناقشني الحساب ! ولا بأس ! فقد عثرنا على الجارية بثنة وسنعيدها لسيدها .. وسأقول له ان سفينتنا غرقت بما عليها .. وانني اضطررت الى بيع الجوهرة النادرة ..

وساله شهـــاب الديـــن :

ــ وكم سيدفع الجواهرجى الذي سيشتريها ؟

قـــال الربـــان :

ــ سيشتريها امير هذه المدينة بمائة الف دينار !

انه مال كثير ! سندفع بعضه ثمنا للسفينة التي تعود بنـــا الى بلادنا .. وندفع بعضه للتجار الذين غرقت بضائعهم مـــع سفينتنا ! والباقي نرده لصاحب الجوهرة ! وعندما يفتح الله لنا ابواب الرزق سنؤدي الدين كاملا لصاحبه !

قال شهاب الدين :

ــ ومتى يظن سيدي اننا سنترك هذه المدينة !؟

قـــال الربـــان :

ــ بعد اسبوعين ! فنحن الان في موسم اغلاق البحـــر ! واظن ان موسم فتح البحر سيبدأ بعد اسبوع على الاكثر .

***

وفي الايام التالية ، كانت عين الملاح الاعرج لا تترك شهاب الديـــــن !

وكان الرجل الاعرج ، يحاول ان يسحب شهاب الدين بعيدا عن التفكير في بثنة فيقول له :

ــ السنا صديقين ؟.. تعال معى نتفرج على معابد هذه المدينة ! آن فيها اصناما عالية جدا ! او لعلنا نذهب الى البساتين المجاورة فهى قطعة من الجنـــة .

ولكن شهاب الدين كان يقول في كل مرة :

ــ اريد ان ابقى وحـــدي .

وذات مرة ، اعترف شهاب الدين للملاح الاعرج بانه يحب

الجارية حبا عظيما .. وانه يفكر في خطفها والذهاب معها بعيدا !

وضحك الرجل الاعرج وقال :

ــ الرجال الكبار هم وحدهم الذين يخطفون النساء ويشترون الجواري .. ولكن هل تريدها لنفسك حقا ..

قال شهاب الدين انه يريدها ! ومضى الاعرج يقول :

ــ هذا حقك فأنت الان رجل ! ولكن هل سمعت مني حكايه مجنون الجواري !

قال شهاب الدين :

ــ وما هي حكاية هذا المجنون ؟

قال الرجل الاعرج :

ــ هي حكاية غريبة .. وقد حدثت منذ سنين كثيرة !

ففي ذلك الوقت كنت شابا قويا وكان معنا فتى يعمل في السفينة .. واحب هذا الفتى جارية اسمها (سعدى) وكانت هذه الجارية مملوكة للص خطير .. يهددها بالقتل اذا خانته مع اي رجل اخر ! وكان اللص قاسيا ، يضربها بالسياط ويعذبها !.. ومع ذلك كانت تنتهز فرصة خروجه للسطو على المراكب ، وتدعو هذا الفتى الى بيتها وتقضي معه الوقت الطويل ! وعندما كان اللص يعود الى بيته ، كان يقول لها متوعدا :

ــ اني اشم رائحة رجل غريب ..!!

فكانت الجارية تقسم بانها مخلصة له ! وكان اللص يصدقها !

ولكن رائحة هذا العشق زكمت الانوف ووصلت الى اللص الخطير فأقسم ان يقتل الفتى العاشق !

ويشاء القدر ان ينتصر الفتى على اللص ، ويرديه صريعا ..

واطمأن كل الناس واستراحوا لموت هذا اللص !

لكن شخصا واحدا حزن اعظم الحزن على موت اللص الخطير .. اتعرف من هو ؟ قال شهاب الدين ذاهلا :

ــ وكيــف اعــرف ؟

قــال المــلاح الاعــرج :

ــ الجارية سعدى ! ومن يوم ان قتل الفتى سيدها اللص الخطير ، قطعت ما كان بينها وبين الفتى .. وهجرته ! وعرضت نفسها في سوق الجواري . واشتراها مــــن هو اشد سطوة من اللص الخطير .. انعرف من الذي اشتراها ؟

قال شهاب الدين ذاهــلا :

ــ وكيف اعــرف هــذا !

اجابــه الاعــرج :

ــ اشتراها والي المدينة ! فاشترطت عليه ان يقيم القصاص من الملاح !هل تتصور هذا !

وعندما سمع الملاح بما حدث ، انطلق هائما على وجهه .. بتقاذفه العشق ، والهجر ، والقدر ، واصبح مجنونا !

قال شهاب الديــن :

ــ ولماذا فعلت الجارية سعدى هذا بالفتى المسكين ؟ هل كانت تكذب عليه ولم تكن تحبه ؟

قــال الاعــرج :

ــ أظن انها كانت تحبه تماما .. لكن بعض النساء يبحثن عن طعوم مختلفة ! فهى ــ فيما اظــن ــ كانت تعشق اللص ، وتهوى فيه هذه القسوة والغفلة ، وكانت في نفس الوقت تحب هذا الفتى المسكين ، وتهوى فيه طيبة الشباب واندفاعهم .

قال شهــاب الديــن :

ــ ولكن الجارية هيَ التي بدأتنى بالغزل !

وعاد الاعرج يضحك ويقول :

ــ ستعرف يا بنى انالدنيا غانية متقلبة ، وان الجاريــة دنيا لا تستقر على حــال !

قــال شهــاب الديــن :

ـ لا افهم ! ولا اريد ان اصدق ! لكني اسألك سؤالا واحدا :
هل من حق ابي ان يعيد الجارية الى سيدها القديم ؟
قال الاعرج :
ـ يجب ان نسأل معا : ماذا سيصنع الملاح الخبيث بها وقد عرف انها تعشق شهاب الدين ! لقد عرف هذا تماما ، وهو الذي قال لي كل شيء .. فماذا سيصنع هذا الثعلب الخبيث ؟!
واجاب اليوم التالي على هذا السؤال ، فقد اقبل الملاح الخبيث على الربان مهللا قائلا :
ـ بشراك يا سيدي الربان !
لقداصبح شهاب الدين رجلا مثلنا ينافسنا على النساء !
وسأله الربان مأخوذا :
ـ ماذا حدث !
قال الخبيث !
ـ وقعت بثنة في عشقة !
ـ ثم ماذا !
ـ الجارية الناعمة الصغيرة قالت لي من يومين ، انها لا تطيق فراق شهاب الدين ،وانها تريد من سيدي الربان ان يحتفظ بها لشهاب الدين والا يعيدها الى صاحبها الاول .
قال الربان حزينا :
ـ وماذا قالت ايضا !؟
قال الملاح الخبيث :
ـ هذه الجارية اشد خبثا واكثر دهاء مني ! لقد قالت لي : ان سيدك الربان لا يملك التصرف في بهذه الطريقة !.. ولا تغضب !.. قالت ان الجوهرة النادرة كانت مخصصة لشرائها ، وانها خرجت من ذمة سيدها لهذا الغرض فاذاكانتالجارية قد جاءت الى سيدي الربان ، فهي التى هربت بارادتها !.. ولم يدفع الربان شيئا في ثمنها ، وانها تقول ـ انها هي التي اعتقت نفسها

وانها حرة وليست جارية ! وتقول انها تريد منسيدي ان يعيد الجوهرة الى صاحبها ! لانها امانة في عنقه ! واما هي فامرأة حرة ! تتصرف في نفسها كما تشاء !

قال الربان في غيظ :

ــ اذن فهي التي اعتقت نفسها بنفسها ! سنضربها بالسياط حتى ننسى هذا العبث !

قال الملاح الخبيث :

ــ اليك يا سيدي ! ان جسمها الناعم لا يتحمل لمس الحرير. فما بالك بالسياط !

وسأله الربان ــ بدون عمد :

ــ وكيف عرفت ان جسمها ناعم !

قال الملاح الخبيث :

ــ لقد عقدت عليها قراني يا سيدي الربان ! ولا تغضب مني .. !!

وانفجر الربان صاخبا :

ــ انت تزوجتها !

قال الملاح الخبيث :

ــ ولماذا لا اتزوجها !

قال الربان :

ــ انها مملوكة لرجل اخر !

اجابه الملاح الخبيث :

ــ الاحرى انها كانت مملوكة له ثم خطفها القراصنة ، وحررت نفسها بنفسها واختارتني زوجا لها .

دفعه الربان من كتفه دفعة قوية وارسل وراءه اللعنات .

ــ لص ! خبيث ! صعلوك !

ونادى شهاب الدين وقال له بصوت قاطع غاضب :

ــ لا تذهب الى كوخ الرجل الخبيث ! وليس لك شأن

بالجارية بثنة ! اني احذرك ! لا شأن لك بها ! وانصرف الان عن وجهـــي .

***

وبينما كان شهاب الدين يغادر الفندق ، جذبه الملاح الخبيث من قميصه وهمس في اذنـــه :

ـ ابوك غاضب مني وقد يدق عنقي فقد تزوجت بثنة .. لا تقاطعني ! تزوجتها لاحميها من سيدها الاول ! ولاحفظها لـــك انت ! وثق بانها (امانة) طاهرة في عنقي ! لن المسها ! ولا تصدق اني (زير) نساء كما يقولون ولكني اطلب منك شيئا واحدا في مقابل هذا الصنيـــع .

قـــال **شهـــاب الدين في ضيـــق** :

ـ وما الذي تطلبه منـــي !

اجابه الملاح الخبيـــث :

ـ ان تضع (سلطانة) في حبة عينك واعماق قلبك !

قال شهاب الدين **في ذهـــول** :

ـ ومن هي سلطانة ؟

قال **الملاح الخبيـــث** :

وعاد شهاب الدين يسأل :

وتعنى بها وتحنو عليهـــا !

ـ عدني اولا ان تحبها وترعاها .

ـ ومن تكون سلطانة ؟

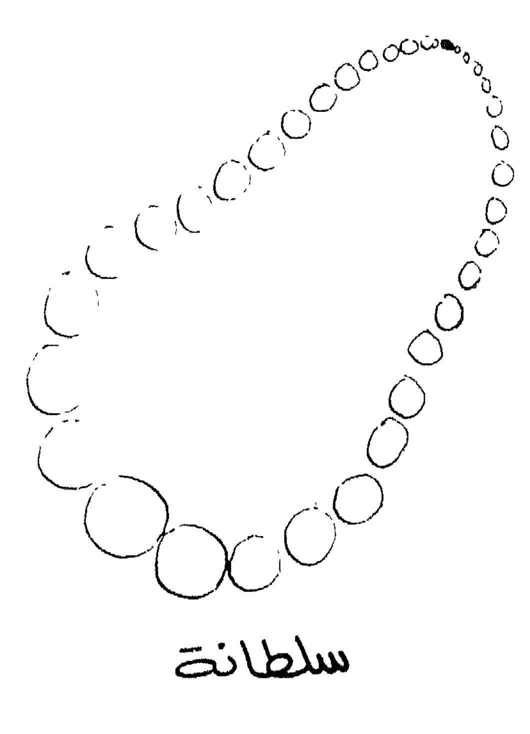
ـ قال الملاح الخبيـــث :

ـ انها اعجوبة الدنيا ، وام الغرائـــب ، واحلى الاشياء ، واجمل ما رأته العيون ! وستعرف عنها كل شيء بعد اسبوعين

اثنين ، فعندما نصل الى بلادنا سأقول لك : من هي سلطانة !
وسأضعها بين يديك ، وعندها لن يكون في عقلك وقلبك
الا عبارة واحدة هي :
ماذا اصنع مع « سلطانة » ؟



الحلقة التاسعة



سلطانة

وتدارت عجلة الايـــام ، ومضت الشهور والاعوام ، وتزاحمت الهمــــــوم والاحزان ، واصبح شهاب الدين رجلا ناضجا .. بكل ما في الرجولة من ((فتــوة)) و ((مرارة)) .. و ((حلاوة)) .. و ((عذاب)) .

وذات يوم ، كان رجاله وعشرات من النجارين والحدادين ؛ ينشطون في بناء سفينته الجديدة الضخمة ، التي كانت رابضة فوق الارض كالطائر الجبار ..

لكن هيكل السفينة ، كان يشبه ايضا هيكل وحش اسطوري كبير .

وكان شهاب الدين في ذلك اليوم ضيق الصدر لاسباب شتى وأراد ان يهرب من هذا الضيق فصعد التلال القريبة لينفرد بنفسه وهمومه .

واسند رأسه الى يده ، ومد جسمه الفارغ على قمة التل العالي وارخى على رأسه شالا من الكشمير الهندي الثمين .

* * *

وكان كلبه (النمر) — وهو وحش شرس — يتبعه كالظل ، ويرقد على حافة الهضبة الضيقة .. ينظر الى حيث ينظر سيده ؛

وعادت الذكريات الى شهـاب الدين .. ومرت في خاطره بقايا تلك السنوات العشرين التى كانت قد مضت منذ عودته مع ابيه من رحلة الاهوال الى ان بدأ في بناء سفينته الجديدة .

وحقا .. ما اشد امتلاء هذه السنين !

لقد حفلت بالمخاطر القاتلة ، وفاضت بمرارة الحب ، وفاحت برائحة الخطيئة وطابت بحلاوة المكاسب التي حصل عليها من نقل البضائع بين شاطىء افريقيا ، وبحر العرب ، وشاطىء الهند وسرنديب ، وجزيرة جاوة !

بل لقد حصد ارباحا طائلة من نقل (اللؤلؤ)والتجارة فيه .

وكل ذلك حدث منذ ان مات ابـوه . اجل .. فأكثر ما كان يزحم خياله من صور الماضي ، كانت صورة ابيه الربان وهو راقد في فراش الموت ، ضامر الجسم ، لاهث الانفاس ، رمادي اللون . والناس من حوله يقولون بلا فائدة :

ـ بقيت وسلمت فأنت شيخ هذه الصناعة .. وانت الذي علمتنا ان نمضي في البحار الواسعة ، وان نعود منها بالخبر لاولادنا وبيوتنا !.

وكانت تلك الكلمات فارغة من معناها الكامل .. فالحقيقة ان البحارة كانوا يعودون ايضا من رحلاتهم الخطيرة .. بقلوب مصدوعة .. واجسام مرهقة .. وكانوا يحملون ايضا على اكتافهم هموما وشقاء .. !

وهمس شهاب الدين لنفسه :

ـ وها انت تواجه الشقاء من جديد !

وسقط قلبه في دوامة الذكريات حتى الاعماق .

وعندما كانت هذه الدوامة الفظيعة ، تسحبه من واقع الحياة ، الى مرارة الذكريات ، كانت الاحزان تخترم قلبه فيبادر

الى الهرب بنفسه من الاحزان .. فكان ينطلق مع ندامى الليل الى دير قديم .. وهناك يشرب لينسى .. او كان يذهب الى مجالس الغناء والرذيلة في بيت معروف .. او كان يزهد في الخطيئة ويأتي الى هذا الموقع المرتفع ، ويعطي قلبه للنظر الى السماء والبحر ، او كان يبتهل الى الله ان يهديه ويأخذ بيده .. او كان ينقلب على جنبيه ويعلق عينيه بالنجوم !

وفي تلك الاوقات كان شهاب الدين يربط بين مسالك النجوم ومسالك البحر ومسالك حياته .

والحق ان ايامه كانت تنسج خيوطها ، بين هذه المسالك وتلك !

وكان شهاب الدين — في تلك الاوقات — يتذكر ما تعلمه على أيدي شيوخ الملاحين ، وما قرأه في كراسات ابيه وما كان قد سمعه من البحارة المجربين . وما كان قد عرفه واكتوى بناره .

***

واقبل طائر ابيض كبير ناحية التل ... فأطلق كلبه « النمر » عواء مخيفا .. ووثب هنا وهناك .. بينما مال الطائر وغاب بعيدا ، ثم عاد وانقض قريبا من الكلب . ووثب الكلب نحو الطائر .. وكادا يشتبكان في عراك !

وايقظ هذا العواء ، شهاب الدين من ذكرياته فنادى كلبه وامره بأن يحضر لفافة الطعام التي كان يحرسها والتي اراد الطائر ان يخطفها .

وحمل الكلب هذه اللفافة في فمه وجاء يتمسح في ثوب شهاب الدين الذي راح يربت على رأس الكلب ويقول له :

— سننزل الان الى حيث يعمل الرجال .

وما ان انداح شهاب الدين وسط رجاله حتى غمره احساس

بالراحة .. والنسيـــان !

وكان بعض البحاره وصناع السفينه يحاولون ان يسحبوا كتلة ضخمة من الخشب فلما رأوه قريبا منهم صاحوا عليـــه ان يساعدهم ! ومد شهاب الدين يديه وسحب كتلة الخشب معهم !

وكانت يداه قويتـــين حقـــا !

ونزف العرق من جبينـــه وغطى جسمه جميعـــا !

***

وفي اواخر النهار ، نزل الى البحر .. وكانت السباحة راحته الكبـــرى !

كانت تعيده الـــى طفولتـــه الاولى ، فيعبـــث في الماء عبث الاطفال ، يدبدب بيديه وقدميه ، يملأ فمه بالماء ثم يقذفه كالنافورة. ويسبح الى حيث تصبح الامواج هادئة كالحصير !

وكان كلبه « النمر » يقلده . وكان قد تعلم السباحة واشتهر بين الملاحين بأنه « حوت » الجنوب !

***

وهبط المساء . وشهاب الدين لم يزل يسبح .. فلما عاد الى الشاطىء كان اكثر رجاله قد تفرقوا .. وبقي بجوار هيكـــل السفينه هذا الملاح الخبيث ، الذي ناهز الستين وزيادة .

واستقبله الملاح الخبيث ضاحكـــا :

ــ ستذهب الان الى بيتك الموعود !

وأشار بيده الى البيت المعروف بالرذيلة ..

وأراد شهاب الدين ان يغيظ الملاح الخبيث فحرض كلبـــه « النمر » على ان يهاجم الملاح الخبيث !

وما ان انشب « النمر » انيابه في قميص الملاح الخبيث حتى صاح مذعـــورا :

ــ النجدة ! ادفع هذا الوحش بعيدا عني !

وعندما ابعده شهاب الدين قال الملاح ضاحكا :

ــ لا تفعل هذا بي مرة اخرى ! فقد يستملح الوحش لحمي وينهشنـــي !

وسأله شهـــاب الديـــن :

ــ لم تقل لي.. اين حانة الصعاليك التي تهرب اليها ..!

قال الملاح الخبيـــث :

ــ هذه الحانة الطيبة قريبة من هنا .. وستأتي معـــي الليلة .. وستشرب معنا اخلاطا من غرائب الرحيق ، وتسمـــع اخلاطا من غرائب الالحان . وترى غرائب المغنيات والضاربات على الدفوف وسقط الناس من الصعاليك واللصوص القدمـــاء والمخبولين ! فهذه الحانة يسقط عليها العتاة من السفلة !.. ويسيل على ارضها ، فيض من النبيذ !

***

وتركه شهاب الدين ، فما كان يستطيع ان يهجر بيتـــه في تلك الايام ، ذلك البيت الذي اصبح ملتقـــى الاحزان طوال عامه الاخير .. فبثنة الجارية التي احبها وتزوجهـــا قد اصابها مرض خبيث فتهالك جسمها وذبل واصبحت قليلة الكلام ، بطيئة الحركة ! وابناؤه الصغار يذكرونه بإنطلاق الايام الماضية حين كانت بثنة ما تزال غزالا يمرح ويملأ البيت اشراقا وضحكا .

***

وامضى شهاب الدين اول الليـــل ، بجوار فراش بثنـــة ! فعيناها كانتا تستنجدان به ! وصوتها الضعيـــف كان يترسب في قلبه كلمة فوق كلمة !

وكانت تقول بلا ملل :

ـــ سأموت .. !

ميضغط بشفتيه على جبينها ومفرق شعرها !

وكانت تنسى آلامها وتهمس في دلالها القديم :

ـــ لن تتركني وحدي ..

فيهمس لها :

ـــ لا تخافي ! فانت امرأة طيبة !

وتعود تسأله :

ـــ ولن تترك الاطفال وترحل في سفر بعيد !

ويقول لها هامسا :

ـــ ستمضي شهور طويلة قبل ان يتم بناء السفينة الجديدة ونركبها في رحلتنا القادمة !

وكانت تقول له :

ـــ صب على شعري من قارورة العطر ! .. وحدثني عن السفينة الجديدة ..

قال لها :

ـــ ستكون اكبر سفينة في بحر الجنوب .. فيها اماكن للبضائع الغالية . واماكن للملاحين .. وفيها « قمرة » للربان .. وفيها ادوات ملاحة عجيبة ! هل تذكرين « بيت الابرة » الذي صنعته بيدي !.. سيكون هاديا لنا في رحلتنا القادمة باذن الله .

قالت الجارية بثنة :

ـــ وستذهب بك السفينة الى جزائر المرجان ، وبحار اللؤلؤ ، وستقابل جواري اخريات !

ومنعها شهاب الدين من ان تكمل حديثها ... فقد كانت مرهقة تماما ! واخذ يربت على وجنتيها وشعرها . ويهمس لها :

ـــ ما تزالين طفلة ! تغارين من الخيال !

وسقاها من الدواء الذي احضره من بلاد الشام !

فنامت بثنة كما ينام الطفل الرضيع .

* *

واصبح — بعد نومها — .. هائما بين جدران البيت . كأنه شبح قتيل لا يستقر ولا يهدأ ابدا .

* * *

وخطر له ان يجرب « سلطانة » .

واما « سلطانة » فكانت هي القلادة المسحورة ، التي حصل عليها في ميناء الهند ، وكان الشرط الذي اشترطه الحكيم الهندي يوم ان اعطاها لشهاب الدين ، ان يستخدمها ثلاث مرات لا غير ..!

وقد استخدمها في اول مرة عندما كان ابوه برفض ان يزوجه **الجارية بثنة (*) !!**

يومها ، اشعل نارا صغيرة ، والقى فيها بخورا هنديا ، وادار « سلطانة » فوق البخور ، ثم لبسها تحت القميص ، وذهب لمقابلة ابيه ، فاذا بالشيخ يلقاه مرحبا به ويقول له ضاحكا :

— ستحدثني عن هذا الذي يملأ قلبك ولن تخجل من الحديث معي .. فانت الان رجل ! ... هل اقول لك كلمة طيبة ! لقد وافقت على ان تتزوج من هذه الجارية !

ويومها قبل شهاب الدين يد ابيه وصدره مرات ، واقيمت الافراح الهائلة ، واتخذ لنفسه وبثنة بيتا ... وجرت الحياة بعد ذلك في رخاء ومضت السنوات ، ولم يستخدم « سلطانة ».. طوال عشرين سنة فلماذا لا يستخدمها من اجل شفاء « بثنة » !



واشعل نارا صغيرة والقى فيهـا البخـور وادار فوقها « سلطانة » وهمس بالامنيات :

ــ اريد ان ارى في الحلم ماذا استطيع ان اصنع لشفـاء بثنـة .. !!

وشيئا فشيئا ، سقط جسمه في غيبوبة خفيفة ، وخطر له انه محمول على بساط الريح ... وانه عاد الى جزيرة القمر ... وانه قد صعد الى بحيرة العشاق . ورأى موكب الحوريات .. وان عدد الحوريات كان عشرين حورية يرقصن على ضفاف البحيرة ! وانهن ذهبن في صفوف متفرقة الى الوراء وتركن صدر المكـان لجارية بديعة الجمال ... فرقصت حوله ثم اقتربت منه ، وقالت لـه :

ــ أخائف انت على بثنـة !

ــ اجل ! فأنا احبها حقـا !

ــ وتريد ان تجد الدواء الذي يشفيها !

ــ اجل ! اريد ان تسترد بثنة عافيتها هذه اللحظة قبـل التـي تليهـا !

ــ ستجد الدواء في سوق العطارة !

ــ ولكني سألت العطارين والحجامين ، وكل من يشتغـل بالطب ولم اجد لها دواء شافيـا !

قالت له الجاريـة :

ــ سيأتي بالدواء عطار غريب ، اسمه ابو المحاسن !

ــ وكيـف اعرفـه !؟

ــ سترى ان لحيته طويلة ، وعمامته كبيرة ، وستسمعه ينـادي :

« بخور وجاوي ، وقراطيس تداوي كل البلاوي » .

ــ لا يكفي هذا ! فكلهم ينادون بهذا النداء في سوق العطارة !

ـ وسنرى على صدره قلادة مثل قلادتك « سلطانة » .

***

واحس شهاب الدين ، بأن جسمه قد اصبح ثقيلا كأنه كتلة من الرصاص ! ثم احس كأن جسمه قد اصبح خفيفا كأنه ريشة نعام وبأنه يهبط ويصعد ... ثم غاب عقله تماما واستسلم للنوم .

***

وفي الصباح ، سار شهاب الدين الى سوق العطارين ، واستقبلوه بالتحية والكلمات :

ـ لم تصل بعد قوافل التجار ... من سرنديب !

وفي درب ضيق ، رأى الرجل الذي حدثته عنه احلامه ... وكانت لحيته طويلة ، والقلادة فوق صدره ، وهو ينادي بالنداء الذي سمعه في الحلم .

واشترى منه قراطيس الشفاء وعاد كالطائر المنطلق الى بيته !

وسقى بثنة من الدواء ! ومضت ساعة ، وافاقت بثنة واستردت وجنتاها شيئا من النضارة !

وسقاها الدواء في المساء كما قال له العطار وزادت عافيتها ! وقالت له :

ـ استطيع الان ان احرك يدي ... انظر !

ومدت يدها ، وحركت اصابعها ومال على وجنتيها وقبلها ! وصب على شعرها من العطر المحفوظ في القارورة !



ونفتحت شهيته للحياة الصاخبة فمضى يبحث عن الملاح الخبيث حتى وجده ، وقال له مستبشرا :

— الليلة انت اميرنا ! وانا تابعك .

— وتأتي معي الى حانة الصعالبك !

— واشرب اخلاط النبيذ !

— وترتكب ذنبا مثلنا !

— بل اخلاط الذنوب !

***

وكانت حانة الصعاليك تشبه البيمارستان حقا .. ففيها أشتات من السفلة والانباذ والسوقة والخاطئات وسقط المناع !

وفيها بخور قوي ، وروائح توابل نفاذة ، وحوامض مقبضة ، وطعوم حريفة ، واصوات مجنونة ، ورقصات مخبولة ، وضحكات رنانة ، وآهات سكرانة ، واجسام محطمة ، وغرائز مندفعة ، وعراك بلا سبب ،وقبلات بلا معنى ، وعناق بلا اشتياق ،ومشاعل بلا زيت ، ومسارج بلا فتائل ... وجنون مصطنع ، وجنون ينبع من قلوب مصدوعة !

***

وهكذا اسقط شهاب الدين نفسه في دوامة هذا الخبال والوسخ ... وشرب ارطالا من النبيذ ... وأحس برغبة مدمرة في ان يتمرغ في الحضيض ؟!

ومع ذلك كله ، كان شهاب الدين اكثر الحاضرين احساسا بالندم ...

وعندما شاهده الملاح الخبيث ، يفقد عقله تماما لكثرة ما شرب .... ويحبو على اربع ... ويصيح :

ــ ضعوا كل ذنوبكم على ظهري !

ثم يركع عند قدمي شهاب الدين ويناديه :

ــ لماذا جئت انت الى هذا الماخور الملعون !

احس شهاب الدين بأن حانة الصعاليك تطبق على صدره بجوها العفن ونكاد تزهق انفاسه ... واذا كان لا بد له من ان يمرغ في الحضيض فلماذا لا ينبغي له ان يمرغ احزانه في انطلاقة البحر او على امتداد الرمال !

وسحب قدميه سحبا ، خارجا من الحانة .. !

وكان كلبه « النمر » ينتظره عند الباب فمشى وراءه في ارض خرابب ... ودروب موحشة ... وبين احجار كثيرة ... وتحت نجوم لامعة !

وشهد ذلك الليل ، مشهدا عجبا ، وسمع نقاشا غريبا ... فقد راح شهاب الدين يتحدث الى نفسه بصوت واطىء غريب مرة ، ثم بصوت عادي مرتفع مرة ثانية ... وكان كلبه « النمر » يقاطع هذين الصوتين بعوائه !

وخيل الى شهاب الدين انه سأل نفسه بصوته الواطىء الغريب :

ــ أهذا انت ... شهاب الدين ؟

وخيل اليه انه يضحك من نفسه ويجيب بصوته العادي المرتفع .

ــ اجل ! انا هو شهاب الدين !

ثم خيل اليه انه يسمع سؤالا اخر يقول :

ــ لماذا فعلت هذا ..؟ الم تأخذ على نفسك عهدا بألا تسكر او تخالط الانباذ والسفلة بعد تلك الليلة المشئومة التي كدت ان تفقد فيها « سلطانة » ؟! أنسيت سلطانة ؟ هل نسيت ما حدث لك

بسببهـــا !

واجاب شهاب الديـن علـى السؤال :

ـ وكيف انسى ما حدث لي بسببها ! كنت في اول رحلة مع ابي .. وقد وعدني الملاح الخبيث بأن يهديني « سلطانة » اغرب الغرائب واعجب العجائب .. وقد انجز الملاح الخبيث وعـده فأخذني الى كهف بعيد ، وهناك رأيت حكيما هنديا عمره مائـة وخمسون سنة ، وفحص وجهي ، تحت نور مسرجنه .

وتحقق من الشامة الموجودة على خدي ، وكشف القميص عن صدري ، ورأى الشامة الثانية في اسفل الرقبة ، ثم فحص كف يدي ، ولما رأى تقاطع خطوط الحظ والحياة صاح :

ـ هذه هي النجمة التي لم اشاهدهـــا في الف « كف » اخرى ! انت يا بني هو الرجل الموعود الذي ينبغي ان ينال هذه القلادة السحرية ! وقدم لي سلسلة من الحديد ، فيها خرزة كبيرة زرقاء ... وقال لي ان اسمها سلطانة ، لا نها سلطانة القلائد المسحورة ! وانها ستخدمني ثلاث مرات فاذا اردت شيئا اطلقت البخور وتمنيت عليها ما أريد !

وقد نصحني الحكيم الهندي بأن استخدمها في مواجهـــة الاخطار القاتلة ! وقال لي ان ثعبانـــا ضخما يحرسها وسيأتـــي ورائي ، فاذا اردت أن انالها فيجب ان اقتل الثعبان وحدي !

وفي تلك الليلـــة القاسية ، قتلـــت الثعبان بعد ان كدت اقع فريســـة لـــــه !

***

وايقظه هذا الحديث من سكره فأفاق ... ومضى الـــى بيته وساعات الصبح الصغيرة تطالع ميناء الجنوب .

ودخل مخدع « بثنة » وكان ضوء الصباح ، قدانتشر وبدا له

وجه بثنة جميلا وديعا ، وانفاسـهـا منتظمة ، وقرب خده مـن خدها ، ولمس وجهها بأصابعه الحانية ... ففتحت عينيها وقالت بصوتهـا الضعيـف :

ـ هل عدت مـن الحانـة !

ولم يرد عليها ... بينما قالت له :

ـ الم تعدني بألا تشرب او تذهب الى مجالس الصعاليك ! ان رائحة النبيذ في فمك تدل علـى انك قضيت الليلة في حانـة الصعاليـك !

واسكتها بقبلة حانية ومد جسمـه متعبا بجوارها ، وظل عقله يدور ، ويدور ، وترتسم في ذهنه اسئلة وكلمات :

لماذا عدت الـى الخطيئة !

لماذا استخدمتسلطانة للمرة الثانية بهذه السهولة !

الست انت نفسك صعلوكـا كبيرا !

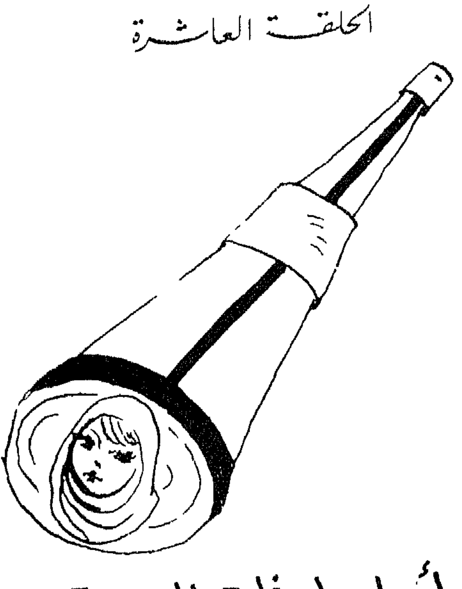
لماذا لم تدخر سلطانة للرحلة القادمة التي ستكون اشد هولا من كـل رحلـة ماضية !

وكان اخر ما دار في عقله استغاثة داخلية من قلبه !

●● اليك ايتها الهواجس الملعونة ! لقد شفيت بثنـة ! وهذا وحده يساوي كل شيء ! ولتكن الرحلة القادمـة على ظهر السفينة الجديدة ، رحلة الاهوال والموت واذا كان لا بد لها من ان نضع نهاية لكل شيء ! فما من احد يموت مرتين .



الحلقة العاشرة



أسرار على ظهر السفينة

ما كان ((شهاب الديـــن)) الا رجلا ...
يغامر وينتزع الامجاد ... وفي قلبه عاطفة
عنيفة نحو المرأة التـــــي ملأت حياته حبا
ونبضا ... ! وعلى ظهر السفينة الاعجمية
كان هناك ((فتى أمرد)) ... ثم ظهر ان هذا
الفتى ليس في حقيقته الا فتاة جميلة ! وكان
ذلك احد الاسرار التي حملتهـــــا السفينة في
رحلة التاريخ لتسجل لقاء اعظـــم رجلين في
تاريخ الرحلات البحريـــة في ذلك الزمن ...

« ــ الى اين تأخذني وقد انتصف الليل . ؟ »

كذلك قالت الجارية (بثنة) لزوجهـــا شهاب الدين عندما دعاها في ذلك المساء ان تذهب معه الى الميناء .

واجابها شهاب الدين بأنه سيجعلها تتفرج على السفينـــة الجديــدة .

وركبا القارب الصغير ، ودارا حول السفينة ، التي بـــدت كعروس . فبعد ساعات قليلة سترحل هذه السفينة في طريقها الى ساحل الزنج ثم الى الجزر الكبار ، ثم سترحل بعد ذلك في اتجاه الشرق الـــى الهنـــد !

***

وكان الليل مضيئا كعادته في تلك الاوقات من موسم الربيع ، بنجوم منتشرة على صفحة السماء .

وكان في صوت الجارية بثنة هذا النداء الناعم الدافىء الذى ينتشر مع الربيـــع !

وكانت رحلتها مع زوجها في القارب ـــ مقدار ساعة ـــ رحلة وداع وفراق بين عاشقين لا يطيق احدهما ان يفارق صاحبه .. فالحقيقة ان شهاب الدين والجارية بثنة كانا يعيشان كزوج مـــن (الحمام) في عش لا يعترف بالملل ! بل كانا يتبادلان الحب ، برغم انقضاء سنوات طويلة على زواجهما ... وكانا يتقاسمان اصغر الاشياء واكبرهـــا في الحياة .

★★★

وقبل ان تطلع الشمس ، تحركت السفينة الجديدة ـــ على بركة الله ـــ الى حيث ينبغي لها ان تتحرك !

ونشرت اشرعتها الكثيرة ، فكانت اولسفينة عربية في ميناء الجنوب تستخدم عددا غير قليل من الاشرعة الكبار والصغار !

وكانت السفينة بدعة في زمانهـــا ، واعجوبـــــة في بنائها وضخامتها ! وقد انتزعت لنفسها (مكانة) سريعة بين سفـــن نقل التجـــارة في الجنـــوب !

وكان (حظ) السفينة اكبر منها فقد انهالت على صاحبها شهاب الدبن الارباح والمغانم والهدايـــا ، مـــع كل رحلة قامت بهـــــا !

واصبحت السفينة تجوب البحار في رحلات سهلة مريحة .. وعرفها التجار والملاحون في كل ميناء ، وانتظروا قدومها ، وودعوها عند الرحيل ، واكتسب شهاب الدين ، امجادا ، وسطوة كبيرة ! فقد حصن السفينة بالمقاتلين وادوات الحرب التي كانت تحميها

من القراصنـــة !

وحصنها بالسمعة الطيبة ، فاطمأن اليها التجار ، واسلموا بضائعهم الثمينة لشهاب الدين ، ينقلها ويتاجر فيها ويرد اليهـــم ارباحهم كاملـــة !

وصار شهاب الدين اشهر ملاح في بحـــار الجنـــوب !

***

وذات يوم جاءه ملاح مغربي ــ اسمه ابو قاسم القيرواني ــ وقـــال لـــه :

ــ اريدك ان تركب سفن الافرنج .. !

وكان الملاح المغربي صديق شهاب الدين منذ عشرة اعوام علـــى الاقـــل .

وسأله شهاب الدين في دهشـة :

ــ اركب مـــاذا ؟

واجابه ابو قاسم :

ــ سفن الافرنج !.. ان امير هذه السفن ، يبحث عنك !

ــ عني انا ! وكيف عرف اسمي ؟ ولماذا يبحث عنى !

قال الملاح المغربـــي :

ــ لقد وصل هذا الامير الى الميناء الافريقـــــى منذ ايام .. وتعرف الي .. وسألني : من هو اعظم بحار عربي .. فقلـــت له : شهاب الدين ! قال امير السفن الفرنجية : ومن هو اكثـــر الملاحين العرب معرفة ببحار الهند ؟ قلت له : شهاب الديـــن ! وسألني : ومن هو اشجع الرجال الذين يركبون البحر في هـــذه الانحاء قلت له : شهاب الدين !

ومد شهاب الدين يده نحو صديقه ابي قاسم وقـــال لـــه في شيء من الاحتجاج :

ـ حسبك !.. لا اريد ان اسمع هذا الحديث فما انا الا رجل ، تربى فوق اطراف الموج ، وفي اعماق الماء وركب السفن بتوفيق من الله .

قال ابو قاسم :

ـ ان هذا الامير الاعجمى يريد ان يستأجرك لترشد سفينته في رحلتها القادمة الى الهند .

قال شهاب الدين :

ـ واترك سفينتي وبحارتي ..؟ .. ان هذا امر لا يحدث ابدا !

وساله ابو قاسم :

ـ وكم تربح من رحلة سفينتك ؟ ولماذا لا تجرب السفر مع هذا الامير ! انك تقول دائما : اريد ان اتعلم ! فلماذا لا تخالط هؤلاء القوم ، فتربح منهم اموالا طائلة ، وتعرف اشياء لا تعرفها وانت تسافر مع ملاحك الخبيث وملاحك الاعرج وبقية هؤلاء الصعاليك !

قال شهاب الدين :

ـ صف لي هذا الامير الاعجمى .

قال ابو قاسم :

ـ انه رجل كالنمر .. نشيط .. هادىء .. قاطع كالسيف .. عيناه زرقاوان .. فوق سفينته احمال من البضائع الغالية ! وملاحوه يرطنون بكل لسان !

قال شهاب الدين :

ـ ومن اين جاء ؟

قال ابو القاسم :

ـ من البرتغال ! او من ميناء (بورتو) او من جبل طارق .. لست ادري ! لكني اعرف لغة هذه البلاد وساكون معكم !

قال شهاب الدين :

ــ واذهب مــع رجالي ؟

قــال ابــو قاسم :

ــ ليس كل رجالك ففي سفينته ما يكفي وزيادة من الملاحين !

قال شهــاب الدين :

ــ لا اترك سفينتي ابدا ! ولو دفع لي قنطارا من ذهب !

ومضى شهاب الذين الى الجارية (بثنة) يشاورها فيمـــا حدثه به صديقه **المغربــي** ..

وكانت (بثنة) كثيرة الاحلام ، والطموح .. فزوقتلـــه الرحلة .. وحببتها اليـــه !

ووافق شهاب الدين على ان يرحل مـــع امير السفينة الاعجمية .. بشروط راح يعددها على اصابعه :

ــ ان يأتي معي الملاح الخبيث .. والملاح الاعرج ! وان اكون سيد السفينة عندما تقلع من ميناء ماليندي الى ان تصل الى ساحل الهند ! وان يكون لي ، ولرجالـــي اماكن خاصة ، لا يساكننا فيها احد من البحارة الفرنج ، وان انال جانبا من الربـــح عندما تبيع السفينة احمالها من البضائع ! وان اعود الى بلدي ، واهلي ، بعد ثلاثة شهور .

***

وكان الملاح الخبيث اكثر الناس حماسة للرحلـــة !

وفي طريقهم الى ملاقاة امير السفن الفرنجية ، كـــان الملاح الخبيـــث يقـــول :

ــ ان هؤلاء القوم ، يجلبون اصنافا طيبة من النبيذ المعتق ولن اشرب واسكر ، فالنبيذ حرام ، لكني سأغمر انفي به لاشمه جيـــدا !

وعندما اخذ شهاب الدين يجهز نفسه للسفر الـــى الميناء

الافريقي .. كان يحزم اشياءه ، وابنه الصغير (محمد) ــ يسأله :

ــ ما اسم هـــذا ؟

وكان شهاب الدين يقـــول :

ــ انـــه الاسطـــرلاب !

ويعود الطفل يسأل ابـــاه :

ــ وهـــذه ؟

ــ انها خرائط .. وستستخدمها ذات يوم عندما تكبر .. انها المرآة التي تريك كل شيء في البحر !

ويسأله الطفـــل :

ــ وهـــذه ؟

فيقـــول ابـــوه :

ــ هذا حجاب ! اتريد واحدا مثله !.. انك ولد شقي ! لا تقنع بشيء !

وحمل شهاب الدين ابنه بين يديه وطبع قبلات حانية علـــى خديه وشعر رأسه ، ثم انزله الى الارض ، ودق بيده على كتفه . وقـــال لـــه :

ــ الان ! اذهب الى امك ! فعندها شواء جيد ! وحلـــوى لذيـــذة !

***

والتقى الرجلان العظيمـــان حقـــا ، على ظهر السفينة الاعجميـــة !..

وكان هذا اللقاء ، منعطفا كاملا في التـــاريخ !

وعندما تصافحا ، كانت ايديهما ، تتعانق بقوة ، وجسامة !

فالرجلان ــ في حقيقتيهما ــ مخاطران عظيمان وحالمان كبـــيران

ومغامران ايضا !

وكان شهاب الدين يعرف ما يكفيه من الفاظ اللغة الاعجمية .. ويستعين على فهم بقية الحديث ــ بالملاح المغربي .

وقال امير السفينة الاعجمية :

ــ هل ادعوك الى كأس من النبيذ المعتق منذ مائة سنة !

وابتسم شهاب الدين واعتذر بانه لا يشرب !

قال الملاح الاعجمي :

ــ الليلة .. نجتمع في (قمرتي) وننظر معا .. كيف نمضي من هذا الميناء .. في بحر الجنوب وبحر الهند !

وكان الملاح الخبيث ــ قد عرف طريقه بين البحارة الاعاجم منذ ان وصل الى السفينة !

وكان قد اثار اهتمامهم ، فشرب معهم ، وجلس دينهم ، واستولى على خيالهم ، بالحكايات الغريبة التي كان يلقيها على اسماعهم !

وعندما ذهب اليه شهاب الدين جذبه بعيدا وعاتبه :

ــ وتسكر هكذا !

قال الملاح الخبيث :

ــ انهم يقدمون لى النبيذ المعتق ليطلقوا لسانى بالحكايات ! ولست اشرب لاني اريد ان اسكر ، بل لانى لا استطيع ان ارد لاصحاب السفينة طلبا ! فنحن ضيوفهم ! وكلهم رجال طيبون وخاصة هذا الفنى الواقف هناك !

واشار الملاح الخبيث الى فتى امرد يحاول ان يبدو كبقية البحارة فيكسو وجهه بالصرامة .

وقال الملاح الخبيث هامسا :

ان صوته انثوي ..!

ولكزه شهاب الدين في جنبه .. فما يجوز ان يتحدث اليه

عن الاصوات الانثوية !

***

وفي قمرة امير السفينة الاعجمية ، جرى مشهد لا تنساه الذاكره ! فقد بسط كل واحد من الرجلين ، خرائطه ، واظهر ادوات الملاحة التى يستخدمها .. واخذا يقارنان بين الخرائط ، ويدققان ، ويتجاذبان الحديث .. وقال امير السفينة الاعجمية :

— وكم يوما تستغرق الرحلة من هنا الى الهند !؟

واجاب شهاب الدين :

— عشرين او خمسة وعشرين يوما كاملا !

وسأله امير السفينة :

— ماذاتعني باليوم الكامل !

قال شهاب الدين :

— ان نسافر بالنهار والليل !

وسأله امير السفينة :

— وكيف نعرف الطريق في البحر بالليل !

قال شهاب الدين في هدوء ، ان الليل — عنده كالنهار ، والنجوم هي التي ترشده ، ومسالك البحار مبسوطة بين يديه ، مألوفة عنده .. وليس بالامير الاعجمي حاجة الى ان يتردد او يخاف شيئا !

وكان الملاح الخبيث ، صامتا ، اثناء هذا الحديث كله .. فلما ترك (القمرة) مع شهاب الدين وعادا الى مكانهما ، قال الملاح الخبيث :

— هذا الرجل الاعجمي كالنمر ويجب ان نكون على حذر ..

وقال شهاب الدين :

— لا تكن جبانا ..

وقال الملاح الخبيث :

ـ انه ينظر الى خرائطنا كما لو كان ذئبا جائعا !..

وضحك شهاب الدين وقال :

ـ وكيف يبدو الذئب عندما يجوع !

قال الملاح الخبيث :

ـ اخشى ان يكون قرصانا !

قال شهاب الدين :

ـ انت (توسوس) ! ان الربان الاعجمى رجل شجاع كريم النفس !

قال الملاح الخبيث :

ـ لا ادري كل ما اعرفه انه كان يطيل النظر اليك انت ، وكان يرميني بنظرات ثاقبة ! واخشى ان يكون هذا الرجل قد اراد بنا شرا !..

***

ولم يلق شهاب الدين بالا الى هواجس الملاح الخبيث !

ولم تظهر الايام التالية مايدل على ان هذه الهواجس كانت صحيحة .. فقد مضت السفينة تشق طريقها في هدوء وسلامة ، بين امواج بحر الجنوب !

وكان البحارة الاعاجم يتوددون الى شهاب الدين وصديقيه ، وكان الطعام وفيرا ـ والمكان المخصص لهم مريحا ... وكان السمر بالليل ، رائعا ..

وفي تلك الاوقات ، كان البحارة الاعاجم ، يشعلون (نيرانا) ويضعون عليها (قدورا) من النحاس ويسكبون عليها السكر ، ثم يصبون عليها من النبيذ ، ويشعلون السكر المتبل بالنبيذ فوق القدور ويشعلون النار تحت القدور .. ويتركون النبيذ في داخل هذه القدور حتى ينضج

ويشربونه (ساخنا) ويتصايحـــون .. ويضجـــون .. ويلتهمون الشواء ، ويرقصون ويمرحون !

وكان اكثرهم شراسة ، ملاح قاسى الوجه اسمه (بدرو) وقد احس شهاب الدين من البداية انه يكره (بدرو) هذا ..

وقال للملاح الاعـــرج :

هذا الرجل لا بد انه (قاتل) غادر !

واطرق الملاح الاعـــرج واضاف :

— ليس كثيرا عليه ان يذبح اي رجل غدرا وخديعة ! لقد رأيته اليوم يضرب الفتى الامرد بالسوط ! ويدفـــع اربعـــة مـــن الملاحين في صدورهم فيقعون على الارض ! ويصيح بالشتائم في وجه الامير الاعجمى ! وكان كالوحش الشرس ! وعندما سألت عن سبب غضبه .. قال البحارة الاعاجم : ليس هناك سبب ! بل هي سورة غضب تجتاحه بين الحين والحـــين ، فيحطم الاشياء ويضرب ويؤذي الفتـــى الامرد ! وقالـــوا لي انه (لص بحـــر) و (قاطع طريق) وانه يخيف الامير الاعجمى ! ويسرق ويقامر .. ويخون العهد ! وانه يريد ان يصل الـــى الهند .. ليسرق بعض كنوزها التى عرف اسرارها .. وانه لا يخفي عن الناس شيئا من غرضه هذا .. ونصيحتى يا شهاب الدين ان نحذر مـــن هـــذا الغـــادر (بدرو) .

وقال شهـــاب الدين :

— وماذا سيأخذ منـــا ؟

قـــال الاعـــرج :

— لا اعرف ! كل ما اعرفه هو اننا ثلاثة رجال غرباء على ظهر هذه السفينة الاعجمية ، وان على السفينة اسرارا .. وعليها هذا اللص القاتل (بدرو) ! فلا بد لنا من ان نفتح عيوننا جيدا !

***

وبعد يومين ، قال امير السفينة الاعجمي لشهاب الدين :

ـ اني اشفق عليك وصاحبيك من العمل المرهق ليل نهار ! فماذا لو قبلتم ان يكون الفتى الامرد مساعدا لك !

قال شهاب الدين في حذر :

ـ لست في حاجـة اليـه !

وتدخل الملاح الخبيث قائلا :

ـ وماذا يمنع من ان يعمل هذا الفتى الطيب معنا ! انـه رقيق الحاشية ، مطيع نشيط !..

ويبتسم شهاب الدين وقال بلهجة ميناء الجنوب :

ـ وأمـرد !..

قال الامير الاعجمـي :

ـ حقا .. انه مطيع ونشيط !

قال الملاح الخبيث !

ـ نحن نشكر امير السفينة ونرى ان هـذا الفتى الامرد سيكون نافعا لنـا ..!

ومنذ ذلك اليوم ، اصبح هذا الفتى الامرد ، يلازم الرجال الثلاثة ! وكان شهابالدين يشفق عليه في اعماق قلبه .. والملاح الخبيث يجاوره ليسمع صوته الناعم .. والملاح الاعرج يعاملـه برقـة !

***

ومضى يوم واخر .. ولاحظ الملاح الاعرج ان الفتى لا ينام عندما ينتهي من عمله !

وانه يحوم حول الصندوق ، الذي يضعون فيه اشباءهـم وادواتهم الملاحيـة !

وصارح الرجل الاعرج شهاب الدين بمخاوفه قائلا :

ـ هذا الفتى الامرد يبيت لنا امرا .. انه يدور حولنا .. كما يدور الثعلب حول بيض الدجاج ! يريد ان يخطف منا شيئا !

اظن هذا .. وسيسهل له هذا الامر ، حماقة الملاح الخبيث ، فهو مفتون بصوته الناعم ، لا يكاد يسمعه حتى يقول : زدنا مـن هذه الموسيقى زادك الله من نعيمه !

***

ولم تخطىء الايام هواجس الملاح الاعرج !

ففي تلك الليلة ، دخل شهاب الدين مخدعه .. وكان ينام وحده .. واشعل « سراجا » صغيرا .. وكانت تلك عادته . وما كاد يفعل هذا حتى وجد الفنى الامرد واقفا امامه !

سأله شهاب الدين في حدة وخشونة :

ــ ما الذي جاء بك الى هنا !

وبدلا من ان يجيبه على سؤاله خلع الفتى غطاء رأسه واطلق شعره .. فاذا به شعر سائب طويل كشعر النساء !

وقال شهاب الدين في خشونة ايضا :

اجنبي ! ماذا جاء بك الى هنا ؟

وخلع الفتى الامرد ، صداره وقميصه .. فاذا تحت هذا القميص .. ثوب فتاة ! ملتصق بصدر ناهد ناضج .

واحس شهاب الدين بالدوار وهمس :

ــ فتـاة انـت ؟

قـال الامـرد :

ــ اجل ! لست شابا كما ظننت !

ــ ولماذا جئت الى هنا ! وما اسمك ؟ وما حكايتك !

قالت الفتـاة :

ــ اسمي (هيلانة) ... وحكايتي تكللها الدموع ... وقد جئت اليك يا سيدي ، لاستنجد بك !.. ولست اريد بك شرا .. لقد خطفني (بدرو) من بلدي (طليطله) منذ ان كنت طفلة صغيرة، وربانى ولما كبرت اتخذني عشيقة له .. ولم يبرح يعذبني ويضربني

ويهددني بالقتل ! وكل الرجال القادمين معنا يعرفون حكايتي ! لكنهم لا يجسرون على ان يبوحوا بها لاحد غريب حتى لا ينالهم بدرو بالاذى ، فبدرو شرير لا ينورع عن ان يغمد خنجره في ظهر اي رجل ..

قال شهاب الدين متراجعا الى الوراء :

ـ قفي مكانك ! لا تتقدمي !

وكانت الفتاة قد خطت خطوتين نحوه وتحسس موضع الخنجر الذي كان يغرسه في حزامه .. ولكن الفتاة ركعت على قدميها وانشجت بالبكاء .

وكان بكاؤها مكتوما ، يمزق قلب شهاب الدين فقال لها :

ـ لا تفعلي !.. انهضي وعودي الى مكانك من السفينة ! ولكن قبل ان تفعلي هذا اجيبي على سؤالي ! لماذا اختبأت في (قمرتي) ؟

قالت الفتاة هيلانة :

ـ لاسرق الاسطرلاب والخرائط !

قال شهاب الدين :

ـ اهو الامير الذي كلفك بهذا ؟

قالت هيلانة :

ـ كلا ! انه بدرو !

وسألها شهاب الدين :

ـ ولماذا تسرقينها ..

قالت الفتاة :

ـ لان (بدرو) يريد ان يستولي على سفينة الامير ويسافر بها وحده ويربح اموالا طائلة ! ولعله يريد ان ينضم الى القراصنة ! فهو رجل قاتل لا يرحم ! وقد انذرني بالقتل اذا لم اسرق الخرائط هذه الليلة !

قال شهاب الدين :

ـ سأعطيك هذه الخرائط ! حتى لا يؤذيك هذا الشيطان !
واعطاها لفافة كبيرة من الخرائط .. واستعادت هيلانـة هيئتها السابقة وهي تتمتم :
ـ كيفارد لك هذا الجميل يا سيدي ! لقد انقذتنى من خطر شديـد .
ولن انسى لك يا سيدي هذا الصنيع !

***

ولم ينم شهاب الدين في ليلته تلك ! فقد ظل وجه (هيلانه) يلح على ذاكرته وهي تبكي وتستعطف ، وظل صوتها يرن في اذنيه منكسرا كصوت الشاكلات ! وظلت عيناها المذعورتان تطـلان على خياله كعيون الارانب البرية عندما تطاردها الصقور وكلاب الصيد ! وكان وجه بدرو يخطر له ايضا لكنـه كان يبدو كوجه (تنين) او (وحش) يتلمظ بدماء ضحاياه !
فهل يحكي لامير السفينة الاعجمية ما حدث مع هيلانة ! واذا قال له كل شيء فهل يستطيع امير السفينة ان يمنع بدرو مـن ايقاع الاذى بهذه الفتاة المسكينـة ؟
انه لا يظن هذا ! ولن يقول شيئا وسينتظر !

***

وجرت السفينة ، باسرارها واحمالها من القلق ..
وكان البحارة صامتين ، متوتري الاعصاب ..
فقد زاد بدرو من ايذائه لهم ! فكان يضرب هذا البحار او يركل ذاك ، وكان يعربد بالليل وبالنهار وكان يصرخ بالشتائم ولا

احد يستطيع ان يوقفه عند حد !

وبغى بدرو واستبد !

واغتصب ما شاء من اشياء البحارة ، جهارا !

وسيطر عليه الظلم ، فزاد في الابذاء والقحة !

وسيطر عليه الغرور ، فزاد مـــن التحرشات !.. !.. والبـــذاءة !

وكان بدرو عملاقا ، قويا ، متعطشا للقسوة ، وقحـــا . نبذا وكان شريرا وكان غادرا لئيما ..

***

وكان يلبس اقراطـــا كبيرة ، ويعري صدره الموشوم ، ولا يرتجف تحت برودة الليل ،ولا يهتز لضراوة الشمس الحارقة !

وكان قد كف عن العمل مع بقية البحارة .

واصبح عبئا ثقيلا ، يضغط على صدر كل ملاح منهم .

وذات صباح ، تحرش بدرو بشهـــاب الدين ، بالكلام اولا ، ثم جذبه بقوة من قميصه فمزقه ! وقال له شهاب الدين غاضبا :

ــ ارفع يدك الملوثة عن قميصي !

وبدلا من ان يفعل هذا ، دفع بدرو قبضته في صدر شهـــاب الديـــن !

ولم بشعر شهاب الدين بما حدث بعد ذلك !

كل ما تذكره ــ حين أفاق انه التحم في صراع عنيف سريع مرير مع هذا العملاق بدرو ، وان الصمت كان مطبقا ، عليهمـــا في اول الامر ثم سمع شيئا كالتنفس الثقيل ، ثم صوت المـــلاح الخبيث يصيح مذعورا :

حذار يا شهاب الدين ! فبدرو يريد ان يطعنك ..

ثم احس بدم يسيل على وجهه ! ويغطي عينيه ، ثم احس بأن اسنانه تغوص في لحم بشري ! ثم سمع صرخة مجنونة .. وضجيجا عاليا ..وتهليلات ثم شعر بأن اشخاصا كثيرين يقبلونه.. على كتفه .. وساعده .. وخده .. وراسه !

وكان اخر من قبله على رأسه الفتاة « هيلانة » التي تشبثت بـه .

ثم احس بأن الملاح الخبيث يسكب ماء باردا على وجهه .. فأفاق قليلا .. ورأى لدهشته ، انه قد صرع بدرو .. وهشم لوح كتفه ! وان القاتل الوحش ، مرمي تحت الاقدام يئن ولا احد يلتفت اليـه !

وساد الهرج ظهر السفينة !

وسادهـا المـرح !

وتسلقت هيلانة « كومه » بضائع وخلعت ثياب الرجال وصاحت :

ــ الان ! لست عبدة لهذا النذل الخسيس بدرو !

وأرسل البحارة تهليلات عالية صاخبة !

وسمع شهاب الدين ، صديقه البحار الخبيث يقول :

ــ تبارك الله ! كنت اعرف ان هذا الفتى الامرد ليس من جنسنا الخشن اللعين وليس غريبا عن قلوبنا !.. تعالـي يـا بنيـه !

اقتربي !.. تبارك الله ما ارق هذا الوجه .

وغابت الاصوات من سمـع شهاب الدين ، وضاعت الكلمات ! وترنح الى مكانه في السفينة ليرتاح .

***

وبعد ساعات استرد شهاب الدين عافيته ، وعاد الـى ظهر

السفينة .. وكان الليل قد اخذ سقط ملاءته على البحر ..

وكان البحـارة ، قد انتظروا عودتـه بفارغ الصبر فلما شاهدوه .. قالوا :

ــ انت اسدنا !.. اطلب ما تشاء !

واقتربت منه هيلانة وقالت :

ــ هل احضر لك الخرائط التي اعطيتني اياها في تلك الليلة ! فبدرو الان مقيد بالسلاسل مرمي في قاع السفينة !

قال شهاب الدين ضاحكا :

ــ لا حاجة بي اليها ! انها خرائط مغشوشة !

قال الملاح الخبيث :

ــ انا اذهب مع الفتاة المسكينة الى قمرتها ونحضر هـذه الخرائط المغشوشة !

وضحك شهاب الدين وسأل هيلانة :

ــ وما رأيك في هذا الرجل !

قالت هيلانة ضاحكة :

ــ بهلـوان !

وانذرها الملاح الخبيث ضاحكـا :

ــ ما احلى كلمة بهلوان في فمها ! بهلوان انا يا ايتها القمرية !

قالـت هيلانة :

ــ انه يسامرني منذ ايام !

وجذبه شهاب الدين مداعبا وقال :

ــ ولم تقل لي عن هذه المسامرات !

قال الملاح الخبيث :

ــ كنت اعلمهالهجتنا !

ــ هذا فقط !؟

ــ وشرب النبيذ على طريقتنا !

ــ فقط !

والغنــاء معنا !
ثــــم !
قال الخبيــث :
ــ واحمد الله انها تعلمت اشياء كثيرة !

***

ووضع امير السفينة ذراعه حول كتف شهاب الدين وقال له:
ــ وما قصة هذا الخرائط المغشوشة ؟
قال شـهــاب الدين :
ــ كقصة الفتى الامرد !
قال الامير الاعجمــي :
ــ لا افهــم !
فأجابه شهاب الدين :
ــ وانا ايضا لا افهم سؤالا سمعتـــه هذا الصباح .. ان رجالــي يسألون ..
من هي « ياسمين » على ظهر هذه السفينة ؟

الحلقة الحادية عشرة



ياسمين

كانت الرحلات البحرية في ذلك الزمن مليئة بالاهوال والاخطار ، ولكنها كانت ايضا مليئة بالعبر ... حتى ليقول كل انسان : ان حدود التاريخ لا تستقر على الارض وحدها ، بل ترتسم كذلك على صفحة البحار الهائلة التي صارعها الانسان ...

كان الحديث يجري ــ ناعما ــ بين « هيلانه » و « الملاح الخبيــث » ..

وفي البداية ، كانت « اصوات » الفتاة والرجــل الــذي جاوز الستين ، تتداخل معا ، ويفترق بعضها عن بعض ،وتتخللها لحظات من الصمت ولحظات من « التنفس » العميق ، وحفيف ثوب « هيلانة » الطويل ، وهي تسحبه فوق الحشائش .

وكان ذلك كله ، يعطــى احساسا بأن الفتاة والرجل ، يختصران الدنيا كلها في كلمات ومحاورات ولمسات ونظرات !

فقد سألهــا :

ــ هل تحبين اسم يا سمين .. !

قالــت :

ــ وما هو معنى ياسمين ؟

وسحبت ذيل ثوبها الفضفاض ، فأحدث « حفيفه » تموجا في الهواء الذي يفصل بين جسميهما ..

وقالت « هيلانة » :

ــ **لا أعرف لغتكم .. فقل لي** انت ما هي صفات الياسمين ؟

قال الملاح الخبيث :

ــ من صفاته البياض .. !

قالــت :

ــ ليس كل شيء ابيض جميلا !

وبدأ الملاح الخبيث يغازلها :

ــ ولكنك انت بيضاء اللون !.. بيضاء .. وحلوة .. !

قالت في **دلال :**

ــ وعيناي بلون الزيتون !

قــال :

ــ واوراق الياسمين ناعمة !

قالــت :

ــ وفي بلادنا ، تحرص كل فتاة على نعومة جلدها ! وانا ادعك جلدي كل يوم بزيت الزيتون .

قــال :

ــ وللياسمين رائحة ناعسة جميلة !

قالــت :

ــ وفي بلادنا نبات عطري اخر نسميه « الريحان » ! وانــا احب رائحة الريحــان .

قــال :

ــ والريحان كلمة عربية ذهبت الى بلادكم .. وكذلــك « الياسمــين » ..

ولمست « هيلانة » وجه الملاح الخبيث بطرف كمها وضحكت :

ــ ماذا تريد ان تقــول ؟

ـ انـــت ياسمـــين !

ـ انـــا .. ؟!

ـ اجل انت ! زهرة بيضاء جميلـــــة ذات عطر جميل .. اسمك الحقيقي ياسمين !

واطلقت هيلانة « اصوات » الدهشة التى كانت تمزجهـــا بأصوات طروب تدل على انها تعرف مخاطر العشق .

وقالـــت :

ـ يا لك مني !.. انت تكذب علي !

ـ صدقيني ! ان اسمك الحقيقي ياسمين !

ـ كيف عرفـــت هـــذا ..؟

ـ عرفته مـــن « بدرو » !

ـ القاتـــل ..!

ـ اجل .! .. ذهبت اليه وهو مقيد بالسلاسل ، وكـــان يتوسل لكل من يقترب منه ويقول : اعطونـــــي قدحا من النبيذ فأحشائي تتمزق وتحترق !.. ولم يكن احد يرد عليه ! وكــــان « بدرو » مجنونا بالعطش ، فهو كما تعرفين .. مدمن سكير !.. وساومته على ان اعطيه قدحين او ثلاثة ، بشرط ان يقول لي كل شيء عنك انت يا « ياسمين » !

وكانت كلمات الملاح الخبيث مقنعة ، فجلست « ياسمين » قريبا منه ، واخذت تلامس خديه بطرف كمها وتقول له : ثم ماذا قـــال بدرو !

وقال الملاح الخبيث وقد عقد يديه فوق ركبتيه :

ـ قال بدرو انه خطفك من قرية صغيرة في الوادي الكبير بالاندلس .. وعندما هرب بك الى بلاد البرتغال ، اطلـــق عليك اسم « زيجانة » وكنت في الخامسة من عمرك ! وكان اسمـــــك الحقيقى هو ياسمين لانك من عائلة مغربية .. لكن بدرو غير كل شيء ! وعلمك طبائع « الغجر » ! وبعد قليل اسماك « هيلانة » !

لكنك من الان ياسمين المغربية ..!

وكانت هيلانة مشدوهة العينين تقاطع الملاح الخبيث قائلة :

ــ انت تكذب علــي !

وكان الملاح الخبيث ، يروي لها صادقا كل ما عرف .

ولكنها ظلت تقاطعه :

ــ انت تكذب علــي !

ــ ولماذا اكذب على ياسمين الجميلة ؟

ــ لتخدعنــي !

ــ ولماذا اخدعك !

ــ كلكم تخدعون النساء الجميلات ! وانت كذاب !

وامسكت بيده ، وجذبته ، حتى اقترب وجهها من وجهــه ، وقالت لــه :

ــ انظر جيدا في عينى .. ماذا ترى فيهما !

قال الملاح الخبيــث :

ــ ارى فيهما وادي الزيتون بالاندلس !

وقالــت ياسمين !

ــ وانا ارى في عينيك انك زير نساء .

ــ ربمــــا ..!

ــ وتزوجت ثلاثين مرة من قبــل !

خمسين مـــرة يا صبيــة !

ــ وعندك جــواري !

ــ احيانــــا !

ــ وتعاكسنــى !

ــ اجل ! لاني احب الغزل .

ــ انت .... بلا قلــب !

ــ كلا ! لا تقولي هذا يا صبيــة ! فقلبي يستطيع ان يضمك ضمــــا .

ـــ ولكن .. قلبك بلا ابواب !

ـــ اجل ! لانه طريق مفتوح .

ـــ وانـــت كـــذاب !

ـــ وصعلوك قديـــم يـــا صبيـــة !

ـــ وتخدعنـــي !؟

ـــ لا تقولي هـــذا ابدا !

ودفعته ياسمين بعيدا وقالـــت :

ـــ وانا ..؟.. كيف تراني ؟

ـــ اغمض عينى ، واقول صادقا احبك ! ولن اخدعك !

ـــ كـــذاب !

ـــ لقد كذبت اربعين سنة قبل ان اراك ! والان ..

وملأ الرجل قبضته من ثوبها وسحبها قليلا .. لكنها ضربته على يده ضربة خفيفة وارسلت ضحكاتها العذبة ، وكركرت :

ـــ لا .. تمزق ثوبي !

لماذا انت زير نساء !

قال الملاح الخبيـــث :

ـــ لاني اريد ان اعرف الدنيا ؟

ـــ تعرف الدنيا ..؟.. انت كذاب !

ـــ صدقيني .. فانا احب ان اعرف الدنيا من خلال المراة ... وقد تزوجت خمسين مرة وعشقت خمسين مرة ، واقتنيت خمسين جارية ... ولم اصل بعد الى معرفة الدنيا ... لقد كان ينقصني ان اعشق عشقا مجنونا لان العشق المجنون هـــو الذي يعلمنـــا !

قالـــت « ياسمين » :

ـــ انت كـــذاب !



وكان الملاح الخبيث قد تغير — حقا — في الايام القليلة الماضية .. وكان تغيره ، يأتى من خلال حبه لياسمين ! فقد كان يريد ان يرى الدنيا ويعيشها ، بقلبها ! وان يتعذب وهو الى جوارها ، وهو بعيد عنها وكان يخطر على باله : ان اية امراة اخرى لا تستطيع ان تعذبه بهذا الدلال كما تستطيع ان تعذبه ياسمين — هذه الصبية الاندلسية ... السارحة كالغزال .. اللعوب .. العابثة .. الضاحكة .. الذكية .. التي ترشق الزهور في مفرق شعرها الاسود الناعم .. والتي تعاكسه بآهاتها القصيرة ، ودهشتها ، واصواتها التى تطحن اعصابه .. هذه الفتاة الطروب تقول له — كما لو كانت تناديه الى ميعاد عشق :

— انت كذاب !

والتي تقول بصوت متكسر :

— اوه !.. ان يدك سارقة !

***

واصبح الملاح الخبيث يعيش في دوامة .. فيهرع الى الشراب وحيدا منعزلا عن الناس ، ويظل يشرب حتى يفقد الاحساس بكل شيء ! وحتى تذوب كل حقيقة وكل خوف في اقداح النبيذ .

وذات ليلة دخل عليه شهاب الدين فوجده سكران ، غارقا في الضياع حتى النهاية !

وكان بين يديه اقداح مختلفة الاشكال .. وكلها مصنوعة من الفخار .

ولم يشعر الملاح الخبيث بأن شهاب الدين قد دخل عليه حجرته !

ولم يوقظه شهاب الدين من غيبوبة السكر بالنبيذ !

وراح الملاح الخبيث يرفع الاقداح ويقربها من شفتيه ثم يضعها على الارض ويغمغم :

ــ خديعة انت خديعة انا وكل شيء خديعة !

ثم ينقر بأصابعه على اطراف طبق نحاسي ويغني بصوت مشروخ :

عذبتني بحبها عذبها الله بما تشتهي ..!

ولا يتذكر بقية الابيات ، ولا يكملها فيعود ليعترف لاقداح النبيذ :

ــ وانا هو هذا المعذب بلا ذنب ..!

ثم ينتبه الى ان بينه وبين الاقداح صلة قربى ومعرفة ! فيقول لها :

ــ انا وانت شقيان في الدنيا ! وانا وانت بيت الشيطان ! ففي البداية .. كنت فتى يريد ان يملك العالم ... ويرتفع الى مدار النجوم .. وبعد قليل ، سقطت في الوحل ! وابتل جسمي بالنبيذ ! وانا من الطين مثلك يا اقداحي المذنبة ! والطين يسكر اذا ابتل بالخمر ! ومن يومها وانت سكرانة ! عربيدة مثلي ! مذنبة ، بلا ارادة ! سكرانة بالليل وبالنهار ! وماذا كنت انت ايها القدح !؟ كنت قطعة من صلصال ، فامتدت اليك يد صانع الفخار..

وانتزعتك من الارض ! ووضعتك فوق الدولاب ! وادارت العجلة ! وجعلتك تلفين هكذا ! وقال صانع الفخار في عقله : هل اصنع منها طبقا ام قارورة للعطر ! ام اصنع منها قارورة للنبيذ ! وجعلك بيتا للشيطان ! ومن يومها وانت سكرانة !

ودق شهاب الدين على كتف الملاح الخبيث فقال الملاح الخبيث :

ــ من الطارق !

قال شهاب الدين مازحا :

ــ ضيف غريب !

ـ لماذا تدق بابـي !

ـ لانـي جائـع !

ـ ليس عنـدي طعـام !

ـ وعطشـان !

ـ اذهب الـى ياسمـين !

ـ ومن هي ياسمين !

ـ اجمل صبية ! اجمل من الجارية بنبة التي حفظتها لسيدي الريان ! من كل امرأة قابلتها ! انها اندلسيـة ! عيناها بلون الزيتـون ..!

ـ هل تعرفهـا !

ـ نعـم !

ـ قابلتهـا !

ـ نعـم !

ـ وتحبهـا !

ـ ليس المهم ان احبها .. اهم من هذا ان تقول لـي هل تحبني هي ام تكرهنـي !

ـ لعلها تعطف عليـك !

واستدار الملاح الخبيث غاضبا وقبض على سروال شهاب الدين وصاح محتجا .

ـ لا تقل هذا ! فأنا الرجل الغـازى الذي تزوج خمسين مرة ! وهذه الصبية ستكون لي !

قال شهاب الدين مسترسلا في حديثه :

ـ انت اكبر منها ! بخمسين سنة !

ـ بأربعين سنـة !

ـ فلماذا تحبـك !

ـ لانه لا يوجد في الدنيا خبير مثلي بالنساء !

وهزه شهاب الدين . ثم صب ماء باردا على رأسه وراح

يغسل وجهه وشعره ويقول :

ـ مسكين أنت ايها البحار القديم ! لقد اصبحت حطاما !!

***

وفي اليوم التالي ، تصارح شهاب الدين والملاح الخبيث بما حدث بين « ياسمين » والملاح الخبيث !

وكان الملاح الخبيث مهشما ، حقا !

وقال له شهاب الدين :

ـ هذه هي حمى العشق !

فأجابه الملاح الخبيث :

ـ والندم !

وقال شهاب الدين :

ـ الندم على ماذا ؟

ـ الندم على اني ولدت بحارا صعلوكا في هذا الزمان .. والندم على اني لم اكن راعيا كبقية اهلي .. والندم على انى عبثت بالنساء مائة مرة ، والف مرة ، ثم اصبحت عاجزا كسيحا امام صبية عيناها بلون الزيتون !

قال شهاب الدين :

ـ هل تريد ان تملك زمام هذه الصبية !

ـ بكل تأكيد !

ـ خذها الى حيث يوجد بدرو مقيدا في السلاسل !

ـ وما الفائدة !

ـ هذه الفتاة اللعوب ، في حاجة الى من يكسر كبرياءها ! فخذها الى هناك !



واقنعها الملاح الخبيث بأن نذهب معه ، الى حيث يوجد « بدرو » ! ومع ان « بدرو » كان قد تحطم وتهالك ، الا انه ، استجمع كل شراسته عندما رآها وصرخ فيها :

ــ امرأة انت .. بلا شرف ! وانا الذي اسقط انوثتك في الوحل ! وامرأة انت بلا اب وام ! وانا الذي شردتك في الدنيا ! وامرأة انت بلا امانة .. بلا قيمة ! انت كتماثيل هذه البلاد ! وجهك يقول شيئا ، وقلبك ضائع ولن تستطيعى أن تسترديه ابدا !

والقى بدرو في وجهها سيلا من الشتائم الجارحة ! وطعنها في انوثتها وشرفها !

وحتى الساقطات ، يتمسكن بالشرف والانوثة !

وابكاها بدرو بكاء شديدا ! وكانت دموعها تفيض ، بلا توقف ! ويدها تتشبث بالملاح الخبيث ! وصوتها قد اصبح صفيرا يتعذب :

ــ لماذا جئت بي الى هنا ؟

وصاح بدرو على الملاح الخبيث :

ــ اضربها بفروع الشجر !

وقالت « ياسمين » خائفة :

ــ **لا تفعل !**

ومن ذلك اليوم ، دخل الخوف قلبها ، وامتزج بشقاوتها ..!

وكان هذا « المزيج » عذابا للملاح الخبيث ! فقد افتضح عشقه لها بين الرجال ! واصبح اضحوكة وامثولة ! واصبح عبرة ومثار اشفاق !

واما (ياسمين) فكانت ضحوكا ، ممراحة ، لعوبا ، طروبا ، وكانت تغري الرجال ، وتصدهم ، وتعدهم وتخلف الميعاد ، وتغني ، وتبكى ، وترقص ، وتشتم ! وكانت (غجرية) حقا !

وكانت تتعمد ان تلهو بالاخرين ، عندما يكون الملاح الخبيث حاضرا .

وكان يقــول بصوت مجروش :

ـ **عذبتني ، عذبها الله .**

ولكن الحياة في مبناء كلكتــا لم تكن حبــا وعبثا ومزاحــا وسـكرا **ونبيذا .**

لقد كان هذا كله ، جزءا من القشرة الملتصقــة بالغلاف ! بالسطح ! بما هو ظاهر للعين ! اما اعماق الحياة ، فكانت كأعماق البحر ، عالما مليئا بالصراع المكتوم ، والقتال الصريح ، والشدو الجذب ، فالربان الاعجمي ـ في حقيقــه امره ـ قد جاء يفتــح طريق التجارة **بين بلاده وبين** بلاد الهند !

وكان (الربان الاعجمي) يحافظ علــى سمعتــه ، ويبتعــد بنفسه عن الاخرين ، ويتعامل مع امير كلكتا ! ويعطي نفسه مظاهر الرجل الخطــير !

وكان شهاب الدين من ناحيته ، يرتفع بنفسه ايضا فــوق الصغائر ، ينظر بعين الى المدينة ، وينظر بالعين الاخرى الــى ما يصنعه هذا الربان الاعجمي !

وكان يريد ان يعرف حقيقة نوايا .. رحلة الربان الاعجمي ..

وفي ساعة صفاء سأل شهاب الدبن هذا الربان الاعجمى :

ـ هل تريد ان ارشدك في سفرك الى بحار الصين !

قال الربــان الاعجمي :

ـ بكل تأكيــد !

وعاد شهاب الدين يقــول :

ـ احب ان اطمئن الى ..

وصمت ولم يرد فسأله الربان الاعجمي :

ـ تطمئن الــى ماذا ؟

ـ الى ان الرحلة القادمة ترعاها بلادك حقا !

ـ ان هذا هو الواقــع !

ـ اريد ان اعرف !

وسحب الربان الاعجمي لفافة من الورق ، ونادى الملاح المغربي وقال له ترجم ما في هذه اللفافة لشهاب الدين .

وعرف شهاب الدين ، اسرارا ، وحقائق جسيمة ! فهذا الربان الاعجمي كان يعمل في بلاط ملك بلاده وكان ملك هذه البلاد يحلم بالثراء العظيم ، ويريد ان يسيطر على طرق التجارة الى الهند ، وقد اختار هذا الربان الاعجمي ، وزوده بالاموال والسلاح والمقاتلين والبحارة !

وأقام مأدبة عظيمة وداعا له .وصاحبه موكب رائع الى شاطىء الميناء ، واطلق اسم احد القديسين على السفينة ! واعطاه هدايا لامير كلكتا .. وهدايا لغيره وغيره ! واوصاه بأن يستل خبرة الملاحين العرب ، كما يستل صانع العطور ، رحيق الزهر من الزهر !

وقد حدث هذا ، كما كان مقدرا له وكان شهاب الدين على صلة قوية بالتجار العرب والمصريين والمغاربة الموجودين في كلكتا !

وكان يعيش في تلك الايام ، موزعا بين رغبته في ان يربح الكثير من السفر مع هذا الربان الاعجمي ، واشفاقه من ان تقع طرق التجارة في يد الربابنة الاعاجم ، فيضيع كل شيء على اصدقائه التجار العرب والمصريين ، واذا حدث هذا ، فان سوق نقل البضائع ستصاب بالكساد ! وسفينته ، لن تجد ما تنقله ! ونجمه سيأفل ، شيئا فشيئا !

وفي حجرته بالفندق ، استدعى الملاح الاعرج والملاح الخبيث وافضى اليهما بمخاوفه وسألهما :

ــ ماذا اصنع !

قال الملاح الخبيث :

ــ نرشد الربان الاعجمي الى الطريق الخطأ وندفع بسفينته فوق الصخور فتتحطم !

قال الملاح الاعرج :

ــ ونهلك معــا !

وقال شهــاب الدين :

ــ ان هذا لن يحدث ابدا ! فلست احب ان اطعن رجلا في ظهــره !

قال الملاح الخبيــث :

ــ اذن فاطعنه في صدره !

وضحك الملاح الخبيث وقال :

ــ اذن اخنقه بالاحضان !

واجابه شهــاب الدين :

ــ لست خبيرا بالعشق مثلك ؟

قال الرجل الاعــرج :

ــ انا الذي ادبر امر هذه المسألة ! وانا الذي اجد لها حلا .

ــ كيــف !

ــ سأقول للتجار المصريين والعرب .. وهم وشأنهم !

ومضت ايام اخرى .. ونشب هذا الصراع الخفي .. بين الربان الاعجمى ، وشيوخ التجار المقيمين بكلكتا !

وفي اثناء هذا كله ، كان الملاح الخبيــث قد ادار رأس ياسمين ! فوافقت على الزواج منه !

وذات يوم ، دعا الملاح الخبيث شهاب الدين والرجل الاعرج، والربان الاعجمي ووجوه التجار الى مأدبة في البيت الذي استأجره بالمينــاء !

وفاجأهم ، بأن اعلن انــه دعاهــم ليشهدوا زواجه من ياسمــين !

وضحك الربان الاعجمى وقال :

ــ والستون سنة ماذا تفعل بها !

قال الملاح الخبيــث :

ـــ سأعيش عشر سنوات ! وبعدها اسقط في التراب !
ـــ وياسمـــين !
ـــ تتزوج رجلا اخر !
ـــ بهذه البساطـــة !
ـــ اجل ! فهي غجرية ! لكنها لن تخدعني وهي على ذمتي !
كذلك اتفقنا ! قلت لها : هذا الخنجر شديد الفتك ! وهـــذه الزجاجة فيها سم قاتل ! وهذا الحبل اعرف كيف اعقده حول اعناق النساء الخائنات ! لكن الخنجر والسم والحبل القاتل ، كلهـــا لن تتحرك من مكانها ما دمت وفية لي ! فاذا مت .. في فراشي او غرقت في بعض اسفاري ! فاني اوصيك بأن تتزوجي من غيري !
قال شهاب الدين :
ـــ وصية حكيمـــة !
قال الخبيـــث :
ـــ اجل ! فأنا الان اباشر الحكمة في عشقي !
وادار رؤوس الحاضرين بمجلس الغناء والقصف الذي احكم اعداده وتجهيزه !
وعندما شقشق الصباح قال له ضيوفه :
ـــ سنتركك لياسمين !
قال في هدوء :
ـــ لا تفعلوا ! لقد اتفقت معها .. على ان تكون اختا لى ..
وضج الحاضرون بالضحك والهرج والصياح .
وقال الملاح الخبيـــث :
ـــ اخـــت واخ !
ـــ انت ! وهـــي !
ـــ اجـــل !
ـــ لماذا هذا الزهد والقناعة ؟
قال الملاح الخبيـــث :

ـــ لانني اريدها ان تتطهر من معاشرة بدرو !
ـــ بمـــاذا !
ـــ بان ترجع الى حياتها النقية كما كانـــت طفلة صغيرة في الوادي الكبـــير .
وبقيت ايام قليلة ، على عودة شهاب الدين ورجاله ، الـــى البحر وفي هذه الايام ، انعقدت صلات وانفصلت صلات !
وتعارضت آراء ، واشتبكت آراء وغاص الملاح الاعرج في حياة الهنود واعطى وقته لتعلم السحر وقال لشهاب الدين :
ـــ انت الان امير الدنيا ، واسد البحـــار ولست في حاجة الي ! وسأبقى هنا !.. سنة او سنتين .
ـــ وتتركنـــي !
قـــال الاعـــرج :
ـــ اتركك لمدة عامين او ثلاثة فأنا الان على حافة القبـــر . واريد ان ابقى بلا هموم ! واريد ان اموت حيث يبني لي النـــاس مقبرة عظيمة وهؤلاء الناس طيبون حقا !
واما الملاح الخبيث فقد غاص في عشقـــــه وقال لشهاب الديـــن :
ـــ لن اذهب الى بحار الصين !
وسأله شهـــاب الدين في صبر :
ـــ وتتركنـــي ؟
قال الملاح الخبيـــث :
ـــ ولن تركب انت مع هذا الربان الاعجمـــي !
قال شهـــاب الدين :
ـــ اهذا امـــر لـــي !
ـــ بل رجاء ! فأنا استعطفك الا تركب معـــه !
ـــ لمـــاذا ؟
قال الملاح الخبيـــث :

ـــ لان سفن هذا الرجل الاعجمـــى ستقاتل سفننا اخرى ، وتدور بينها معركة طاحنة في اعالي البحار !

قال شهـــاب الدين غاضبا :

ـــ وتخوفنى مـــن الحرب .

قال الملاح الخبيـــث :

ـــ لست اخوفك ! اني اتوسل اليك ! لن يكون امامنا اذا ذهبنا الا ان نقاتل مع هذا الملاح الاعجمي !

قال شهـــاب الدين :

ـــ اعترف ! هل اخذت رشوة من القراصنة !

قال الملاح الخبيـــث :

ـــ قسمـــــــا ..

قال شهـــاب الدين غاضبا :

ـــ بمـــن تقسم !

ـــ بياسمين ! انى اقسم صادقا بان معركة طاحنة ستقع في اعالي البحار بين السفن الاعجمية وسفن التجار العرب الموجودين في كلكتا ! فلنبتعد عن الهلاك ! ولنرجع الى بيوتنا ! ولنبق هناك شهرين .. او خمسة اشهر !..

قال شهـــاب الدين مهموما :

ـــ وهل نستطيع ان نبتعد حقا عن المخاطر الهائلة ونبتعد عن اعالي البحـــار !

وخطر لشهاب الدين ان هناك (شيئا) اخر ينبغي ان يصنعه على الفـــور !

شيئا هاما ، يستطيع ان يضمن لـــــه السلامة ، ويضمن لسفينته الرواج ! شيئا يضع نفسه قبل كل شيء عداه !

وقال شهـــاب الدين :

ـــ ابشر ! فقد نرحل انا وانت عائدين الى بيوتنا !

واضاف الملاح الخبيث :

ـ ومعي ياسمين !

قال شهاب الدين :

ـ وكيف تضمن السلامة لياسمين ونحن سنرحل على سفينة كلها رجال !

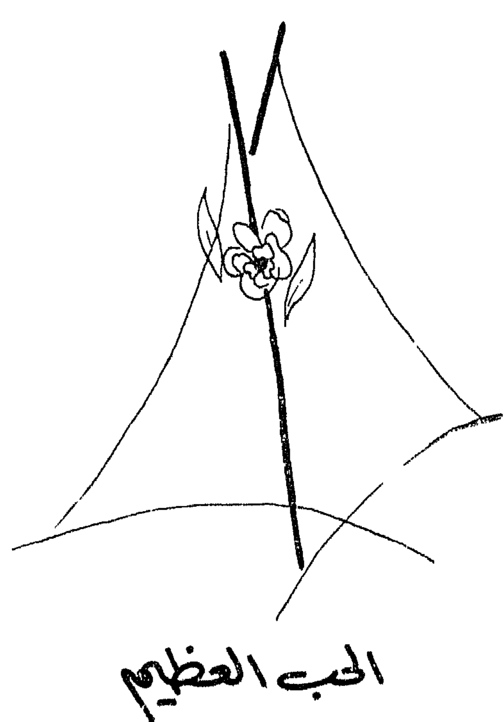
قال الملاح الخبيث ضاحكا :

ـ سأظل أسأل نفسي هذه الليلة .. كيف تنجو (ياسمين) من الرجال عندما نركب السفينة ..

وفي الصباح سأصل الى الجواب على هذا السؤال الصعب حقا .. اجل ! فكيف يمكن ان تعبر معنا البحار بدون ان يؤذيها البحارة ! وبدون ان تقع في يد رجل اخر غيري !



الحلقة الثانية عشرة



الحب العظيم

لم يجر على لسان الانسان القديم والحديث كلمة اكثر ذيوعا من كلمة « الحب » .. وما يرادفها ولم يختلف معنى كلمة ، كما اختلف معناها ! ولكن حب ماذا ؟ ولأي سبب ؟ وكيف يكون هذا الحب ؟ وفي زمن الرحلات والمخاطر والعجائب ، كان لهذه الكلمـــة الف معنى ومعنى ! وكـــان لها اكثـــر مـــن الف شكل وشكل ! ..

ـــ واي شيء هو الحب العظيم ..؟ كان ذلك سؤالا الفتاه « شهاب الدين » في الليلة الاخيرة من اقامتهم بميناء الهند . وكان الذين يستمعون اليه اربعة رجال هم : الملاح الخبيث ، وثلاثة من الحكماء الهنود الطاعنين في السن !

واما الملاح الخبيث فقد جلس صامتا يستمع ويفكر ..

واما الحكماء الثلاثة ، فكان اصغرهم في التسعين من عمره ، وثانيهم ابن مائة عام ، والثالث كان معمرا يبلغ المائة والعشرين .

وقال شهاب الدين :

ـــ اريد ان اتزود بآراء الحكماء العظام .. قبلما نركب السفينة عائدين الى ميناء الجنوب !

وقال الحكيم الاول :

ـ عرفت معنى الحب العظيم بعد ان جاوزت السبعين من عمري .

فسأله شهاب الدين :

وكيف كان ذلك ؟

قال الحكيم الاول :

ـ كان متجري في قيسارية الصاغة والقماش ! وذات يوم جاءني رجل وقور الطلعة ، ومعه صبية جميلة ، سارحة العود ، حلوة الجبين ، سوداء العينين .

وقال لي الرجل :

ـ هذه الصبية اكبر بناتي ، وقد خطبها امير البلاد المجاورة، وبعث الينا يقول : ان اهل مملكته ينتظرون قدومها ، ويحتفلون بموكبها ، انه يريد أن ترتدي اغلى الثياب ، والتيجان ، وان يلمع على صدرها اغلى ما تضع النساء على الصدور .. فهل نجد عندك وشاحا مرصعا بالزمرد والياقوت واللؤلؤ ؟

واخرجت عشرين وشاحا مجلوبة من اركان الدنيا ، وكل وشاح منها عجيبة العجائب .. فبعضها كان سلوكا من الذهب الخالص ، التي تجمعها حبات اللؤلؤ وفصوص الياقوت .. وبعضها كان اديما من اغلى الحرير المطرز بالجواهر المنظومة على شكل زهر دقيق ، وبعضها كان شفافا ، فضاحا ، توشيه الاحجار الكريمة الصغيرة .

وقلت للصبية :

ـ هذه يا بنيتي اغلى ما تضعه النساء فوق الصدور ! فهذا الوشاح المرصع بالياقوت تشده المرأة على صدرها ليزيد تقاسيم جسمها جمالا !

وهذا الوشاح المطعم بسلوك الذهب ، ترسله المرأة فوق عباءتها .. وذاك الوشاح الفضاح ، تلبسه الغواني فوق صدورهن العارية ... فأيها ترتدين !

ومدت الصبية يدها فأزاحت الوشاح بعد الوشاح ،والتقطت عقدا من « الخرز » الازرق والاصفر الرخيص وقالت :

ــ هذا وشاحــي !

واعترض ابوها قائــلا :

ــ ولكن زوجك الامير يريدك ان تلبسي اغلــى ما تضعــه النساء فوق الصدور فكيف تلبسين هذا العقد من الخرز وتدخلين به قصر زوجك !

قالــت الصبية :

ــ هذا العقد اغلى عندي من كل وشاح !

وعبثا حاول ابوها ان يشتري لها وشاح الزمرد او سلوك الذهب . ودفع دراهم قليلة ثمنا لعقد الخرز . وقبل ان يتــرك متجري قلــت لــه :

ــ بحق يومنا هذا .. ان تخبرني بعد عودتك من زفــاف الصبية ــ ماذا حدث بينها وبين الامير ولماذا فضلت عقــد الخرز على سلــوك الذهب ؟

وبعد ايام قليلة جاءني الرجل وقال لى :

ــ هل تصدق ان الامير زوج ابنتي قد سره عقد الخرز غاية السرور ، وفرح به اعظم الفرح ..؟

واستغربت كلام الرجل ، لكنه بدد حيرتى عندما قال :

ــ كان الامير قد ارسل الى ابنتي يسألها هذا السؤال : ما هو احب الاشياء اليــك ؟

فقالت ابنتى لرسول الامير :

ــ ارجع الى سيدك واخبره بأني سأحمل اليه ، الجواب علــى سؤالــه !

وكانت ابنتي قد عرفت ان الامير ، كان ضعيف البصر احول العينين وهو طفل صغير ، فعالجه بعض الاطباء بأن جعلوه يلعب بالخرز الملون : الاصفر والازرق والابيض والاحمر .. واحب الامير في طفولته هذا اللعب بحبات الخرز ، فكــان ينظمها في صفوف ،

ويرميها في الهواء ، ويتلقفها عندما تسقط علـى الارض .. وكان ابوه يجلب له اغرب انواع الخرز من الاسواق البعيدة ، ويعطيه حبات كبارا في حجم بيض الحمام ، ويعطيه حبات صغارا في حجم حبات القمح ، ويقول له : ينبغي ان نبني بيتا من هذا الخـرز ! ويجب ان ترصع به هذه الصحيفة !

واعتاد الامير ، اللعب والتفكير في الخرز ، فلما كبر ، عرف ان اطباءه عالجوا عينيه بهذه الحيلة ، فاحتفظ بالخرز في صندوق.. ولبث يعود اليه ، كلما ضاق صدره فيقضي ساعة في تفريقه وجمعه الى ان تزول غمته فلما عرفـت ابنتـي هذا السر اختارت عقد الخرز ولبسته وهي ندخل قصر الامـير ، مفرح وطرب ، وقبـل يدها امام الحاشية وقال لها :

ــ وكيـف اختـرت عقد الخرز دون غـيره مـن العقود والاغصـان ..؟

قالت ابنتـي :

ــ فحصت العقود والجوهـر ، وكان في خاطـري ان اجمل ما اضعه على صدري ، هو ما يحبه سيدي !

وسألهـا الامـير :

ــ وكيف عرفت اني احب الخرز ؟

قالـت :

ــ من يوم ان خطبتني يا مولاي وانا اسأل وابحث عـن هواك ! ماذا تحب من العطور ؟ وماذا تفضل من الالوان ؟ واي انواع الطعام والشراب والحلـوى يلذ لك ؟ واي انواع الغناء والسمر يحلو في سمعك ؟

وجمعت من هذا كله ، ما يسقي بذور الهوى بيننا .. ليكون حبنا بعد الزواج ، اعظم منه قبله ! وليكون ــ مع الايام ــ حبـا تتحدث عنه النساء والرجال داخل البيوت .. ويقولون عنه :

ــ تبارك الله ! هذا هو الحب العظيم !

واضاف الحكيم قائلا :

ــ ومن يومها يا سيدي الربان وانا اقول ان اعظم حب في حياة الانسان هو الذي يغذي ميثاق الزواج ، لانه ميثاق مقدس !

قال شهاب الدين :

ــ صدقت .. فالرجل منا يجد هواه الحقيقى ، في بيته الخاص .

ثم سأل الحكيم الثاني عن رأيه في الحب العظيم فقال الحكم الذي بلغ المائة من عمره :

ــ اعظم حب في حياتي هو حبي لحفيدي وليس حبى لزوجتى او ابنـي !

وسأله شهاب الدين :

ــ وكيف كان ذلك !

فقال الحكيم الثاني :

ــ رزقت بابني البكر وانا في العشرين من عمري ، وربيته على شاكلنى وجعلته شريكا لى ، ونصيرا في كل ما نلقاه من فرح وحزن ، حتى اصبح ابني صورة مني ، فلو نظرت بعينه لما رأيت اكثر مما ارى بعيني ، ولو نطقت بلسانه لما قلت غير الذي يقول ! وكلما اقتربت من ابني ، ورأيت فيه صورة مني ، تمنيت لو كان مختلفا عنـي !

وقد رزق ابني ولدا ، ربيته في بيتـي .. لكنه كان طفلا مشاكسا وصبيا مستطلعا ، وشابا قوي النفس وسيم الطلعة ، يطيعني لكنه يناقشني ، ويختلف معي ، لكنه لا يقطع صلته بي .

وجاءني هذا الحفيد ذات يوم وقال لي :

ــ اريد ان اقول لك اني عشقت ابنة شيخ التجار وانني سأتزوجها !

واستبد بى الغضب ، وبرحت بى الاحزان ، فقد كان بيني وبين شيخ التجار ، عداء شديد ، وكراهية ، ومرارة .

وسألـت حفيدي :

ـ كيف تصنع هذا وانت تعرف ان شيخ التجار عدونا ؟

فقـال لـي :

ـ اعرف هذا .. ولكني اعرف كذلك ان ابنته لست عدوة حفيدك ! فلماذا نأخذها بالعداء بيننا وأبيها !؟

قلـت لـه :

ـ هذا الزواج لن اوافق عليه !

فسألنـي :

ـ هل تحبني حقـا ؟

قلـت :

ـ احبك قدر مـا احب اباك !

فقـال مازحـا :

ـ بل تحبني اكثر من ابي !

انت نفسك يا سيدي قلت هذا !

وسألته في غضب ودهشة :

ـ هل دخلت قلبي لتعرف ايكما احب اكثر من الاخر ؟

قـال :

ـ انت ترى في ما كنت تتمنى ان تفعله انت ولكنك لم تفعله .. وترى في احلاما خطرت لك ثم تبددت ، ورغبات ملأت قلبك لكنها لم تتحقق ومخاوفا عصفت بك ، ذات يوم .. ثم تلاشت ، واشواقا وحنينا .. كانت لك ، ثم اصبحت من قدري !

وكان حفيدي يعرف كيف يطويني تحت جناحه .. ويضمني الى صفه ، وقد ضمني اليه ، وتزوج من ابنة شيخ التجـار ومن يومها اصبح بيتهما مقامى ، وملجئى ، واصبحت استعذب النظر اليهما ، والاستماع الى حديثهما ، فبينهما حياة اخرى غير تلـك التى عشتها وانشأت عليها ابنى ! حياة كنت اتمناها وعجزت عن ان اعشها .. وهذا يا سيدي جوابي على سؤالك : اي شيء

هو الحب العظيم ! انه حب الجانب الذي لم يتحقق من آمالنـــــا واحلامنا وهمومنا وحياتنا !

وقال شهـــاب الدين :

ــ وتلك اجابة لم تخطر لي على بال .. فما رأي الحكيـــم الثالـــث ؟

قال الحكيم الثالـــث :

ــ حدث لي وانا في الاربعين من عمري انــــى كنت ازرع ارضا ، طيبة ، فيزكو زرعها سنة بعد سنة !

وكان جاري حسودا .. يحسدني كلما زادت غلة ارضي ! وكنت اعرف ان ارضه رملية ولا تعطيه محصولا كافيا ، فكنـــت ابعث اليه في كل سنة بمقدار مــــن خيرات حقلى ! وكلما زاد محصولي ، زدت في عطائي لهذا الحسود !

واصبحت من وجهاء المدينة واثريائها وامتنعت عـــن مباشرة زراعتي بنفسي .. وذات يوم جاءني الخادم يقول لي ان جـــارك القديم يريد ان يلقاك فلما قابلته طلب الي ، ان اعينه على تطبيب اصغر ابنائه من مرض شديد كان قد نزل به !

وكنت قد حصلت على دواء سحري يشفى كل مرض فأعطيته مقدارا منه وبعد ايام جاءني الجار القديم ، ومعه ابنه ، وشكرني .. وقال لي ان هذا الصبى سيكون خادمك ، فأنت صاحب الفضل في شفائه ! لكنني رددته مكرما ؛ واعطيته هدية ثمينة ودعوت الله ان يبارك له في الرزق ، ومن يومها ، كف الحسود عن حسده ، واستقام على طريق الخير ، ورزقه الله على خير وجه .. واصبح مثلنا من وجهاء المدينة واثريائها ! ومنذ ذلك اليوم وجدت الجواب على سؤالك وهو : اي شيء يكون الحب العظيم .. فقد عرفت ان هذا الحب يكون عظيما ، بقدر ما نصنع من خير ، ابتغـــاء وجه الخير ! وبقدر ما ينجح صنيعنا ، ويزكو عملنا ، وعند ذلك يبلـــغ حبنـــا غايتـــه !

وكان الملاح الخبيث يحضر هذا المجلس ، ويستمع الى كلام الحكماء الثلاثة . فلما انصرفوا من مجلس شهاب الدين قال الملاح الخبيث :

ــ هذا كله تخريف في تخريف !

فالحكماء الثلاثة ، يا سيدي ، يقطعون السنوات الاخيره من اعمارهم ، واولهم في التسعين ، والثانى في المائه ، والثالث في المائة والعشرين ! وكلهم مخرفون ! يمضغون الكلام مضغا ، ولا يتذوقون الحب ، ولا يعرفون ماهو الحب العظيم .

قال شهاب الدين ضاحكا :

ــ وهل عرفته انت ؟

قال الملاح الخبيث :

ــ اني اصنعه يا سيدي ولا اكتفي بمعرفته !

وسترى كيف يكون هذا الحب العظيم !

***

وكانت تلك هي ليلتهم الاخيرة في الميناء الهندي ، فقبل طلوع الشمس في الصباح ، سيكون الملاح الخبيث وياسمين وشهاب الدين قد ركبوا السفينة المسافرة الى الميناء الجنوبي !

وكانوا يعرفون ان على هذه السفينة اكثر من مائة رجل !

وكانوا يفكرون :

ــ كيف يمكن ان تسافر ياسمين وسط هؤلاء الرجال بدون ان يلحقها الاذى ..!

واستأذن الملاح الخبيث ، من شهاب الدين ، ومضى الى بيته .. وعصفت الريح خارج البيوت والخانات .

وانتزع ضوء الصباح نفسه من الظلام شيئا فشيئا ! وفي ظلاله ، وغلالاته ، مشى الملاح الخبيث ووراءه انسان اخر ، الى حيث كان ينتظرهم شهاب الدين وما أن رآهما شهاب الدين حتى

صاح غاضبـــا :
ــ لماذا تأخرت حتى هذه الساعة !
فقال الملاح الخبيـــث :
ــ كنت اودع المدينة مع هذا الرجل !
قال شـهـــاب الدين :
ــ يا لك من نبذ حقـــا !
تتصعلك في المدينة وتنساني وتودعها وتنسى السفر ..
ثـــم استـــدرك :
ــ ومن يكـــون صاحبك ؟
قال الملاح الخبيـــث :
ــ رجل مغربي طيـــب !
وجذب الملاح الخبيث طرف ثوب الرجل الاخر وقال :
ــ انـــه اخـــرس !
قال شـهـــاب الدين :
ــ وهل انت مكلف بمصاحبة الخرس ! واين ياسمين !
قال الملاح الخبيـــث :
ــ الا تجد يا سيدي انه ينبغي لنا ان ندخل الخان لنرحـــب بهذا الرجل الغريب ! فليس يليق بك ان تتهجم في وجهه فانـــه بائس مسكين !
وبغير ان يرد عليه شهاب الدين ، سار امامهما الى حجرته الواقعة في الطابق الاول من الخان !
وما ان استقر بهم المجلس حتى قال شهاب الدين :
ــ وما الذي جاء بهذا المغربي الاخرس من اخر الدنيا الى بلاد الهنـــد !
قال الملاح الخبيـــث :
ــ انا الذي جئت به !
واضاف ضاحكـــا :

ــ وانا الذي جعلته اخرس !

ومد يده الى اللثام فنزعه واضاف :

ــ انها ياسمين يا سيدي !

وضحك شهاب الدين وصفق بيديه قائلا :

ــ خدعتني ..!.. كيف لم الاحظ انها ليست رجلا مغربيا..؟ وكيف صبغت جلدها بهذا اللون القاتم ؟

قال الملاح الخبيث :

ــ وكم ارهقتني صباغة جلدها ! وما اكثر ما ذرفت من دموع وانا اعالج بشرتها ، لاطفىء لونها الابيض الوردي ! وكم قالت بطريقتها : لا احب ان اكون سمراء ! وكم قلت لها : وانا لا احب ان يعاكسك الرجال على ظهر السفينة ، وكم تأوهت واصابعي تعالج بشرتها ! وكم ضحكت منها في سري لانني اعرف دلال النساء !

وكانت عينا ياسمين تلمعان ببريق غريب وتقول :

ــ وتسماني ضياء الدين !

وقال لي : ستكونين خرساء ! وانا احب ان اتحدث الى الناس !

***

وركب الجميع سفينة العودة الى ميناء الجنوب .. ولاحظ شهاب الدين ان الملاح الخبيث ، قد وقع فريسة للوساوس من اول يوم ، فقد كان يلازم « ياسمين » وكأنه ظلها ..وكان يحتال حتى لا يفاتحها اي رجل في الحديث ! واذا وقف شهاب الدين بجواره قال له :

ــ كم اغار عليها ! وكم اخاف !

***

وفي البداية قنع الرجال الغرباء على ظهر السفينة بالنظر من

بعيد الى هذا المغربي الملثم الاخرس ! ثم دفعتهم الرغبة في الاستطلاع الى ان يعرفوا من يكون .. وعرفوا انه مسافر عائد الى بلاده وان اسمه ضياء الدين ! وقال ملاح هندي سكير — بدون قصد — كان يجب ان يسميه اهله قمر الزمان ! فهذا الجبين الاسمر يدل على ان صاحبه فتى وسيم غاية الوسامة !

ووقعت هذه الكلمات حيث كانت الغيرة تشتعل في قلب الملاح الخبيث فقال :

— لا شأن لك بهذا المغربى فهو ضيفنا .. وله علينا حق الحماية !

وقهقه الملاح الهندي صاخبا :

— انظروا .. هذا الرجل يغار على صديقه المغربي ! كما يغار الرجل على عشيقته ..!

واندفع الملاح الخبيث مجنونا اليه شاهرا خنجره في وجهه متوعدا :

— ساغمد هذا النصل في قلبك اذا اهنتني مرة اخرى !

وتراجع الملاح الهندي ، خائفا :

— وهل انا اهنتك ! انني قلت .. فقط ..

واطبق الملاح الخبيث بيده على فم الهندي وقال :

— لا تزد حرفا واحدا والا قتلتك ! انك تسخر بنا !

وزاد هذا الحادث من رغبة الرجال في ان يعرفوا ماذا بين الملاح الخبيث وهذا المغربي !

وذات مرة ، وكان الملاح الخبيث بعيدا عن ياسمين ، سمعت ياسمين بعض البحارة الهنود يقولون :

— هذا الرجل الاخرس .. امبر !

— وهذا المغربي الاخرس .. رجل قاتل هارب من القصاص !

واضاف الملاح السكير :

ــ ولعلــه امــرأة !

وعندما خلت ياسمين بالملاح الخبيث قالت له كل ما سمعت . وبدلا من ان يتدبر امرها ، ثارت وساوسه ومخاوفه وغيرتــه . وقال لها بصوت حاسم :

ــ تظاهري من الان بالمرض ولازمي الفراش .. وسأسهر بجــوارك !

لكن همهمة الرجال لــم تقف عنــد حد .. فقد كــان هذا الغموض يثير شهيتهم الى المعرفة !

وكانت عيونهم تدور حول الملاح الخبيث وياسمين ، في الف هيئة وهيئة ! عيون تسأل مجــــرد سؤال ! وعيون تشك اعظم الشك ! وعيون ظامئة اعظــــم الظمأ ! وعيون لاهثة ! وعيون ناعسة !

ولولا ان ربان السفينة الهندي كان قاسيا علــى رجاله . لامتدت ايدي الرجال ، مع نظرات العيون ، فمزقت الثياب المغربية عن ياسمين ! ومزقت جسم الملاح الخبيث لو اعترض طريقهم .

وخوفا على « ياسمين » من ان يفاجئها الرجال في غفلة من ربان السفينة فقال للملاح الخبيث :

ــ اني ارحب بك وصديقك المغربى في قمرتي ! فتعالبا الى هناك وامكثا معى الى ان نصل الى الميناء !

ولم يستطع الملاح الخبيث ان يرفض هذا الطلب .. ولــم يستطع ان يصبر عليه .. فما ان انتقل هو وياسمين الى قمــرة الربان الهندي ، حتى اصبح ذلك المكان جحيما لا يطاق ! وعذابا ما بعده من عذاب ! فاذا اقترب الربان ــ بغير قصد من ياسمين ــ نفرت عروق الملاح الخبيث ، واذا جاملها باشارة من يده ، غلت الدماء في جسم الملاح الخبيث ، واذا نظرت هى الى الربان الهندي ، مزقت نظراتها قلب الملاح الخبيث !

واصبحت ايامه ، بلا روية ... ولياليه بلا عقل ! واوقاته

بلا ميزان !

وذهب ، محطم النفس ، باحثا عن شهاب الدين في ذلك المساء .. فوجده واقفا عند مقدمة السفينة يملأ عينيه بمشهد البحر والسماء .

وهمس الملاح الخبيث في اذن شهاب الدين قائلا :

ـ سأقتلها الليلة ..!

ولم يسمعه شهاب الدين وما كان ليشعر به فقد كان مستغرقا حتى النهاية ، في احلامه المزوجة بمشهد السماء والبحر .

وعاد الملاح الخبيث يهمس :

ـ سأقتلها هذه الليلة !

وهز كتف شهاب الدين . وسأله :

ـ سيدي ماذا دهاك !

قال شهاب الدين بصوت ضعيف :

ـ لا شيء ! ... واتركني وحدي !

ـ ولكني جئتك اقول انني سأقتلها الليلة !

ـ تقتل من !

ـ يا ضيعة كل شيء ! سيدي هل تسمعني !

ـ اجل ! انك تتكلم عن القتل !

ـ اقتلها بخنجري !

ـ ولماذا تقتلها !

وفزع الملاح الخبيث من ذهول شهاب الدين ... فهو لا يسمع جيدا ما يقول ... وضمه الملاح الخبيث الى صدره وعاد يقول :

ـ سيدي ! عوفيت ! هل رجعت اليك الحمى !

قال شهاب الدين في ضعف :

ـ اتركني وشأني !

وتراجع الملاح الخبيث ضائعا مسكينا ، ممزقا ، وسلل الى حيث كانت ياسمين نائمة وحدها ! وبغير ارادة منه ، قرب وجهه من وجهها ، وباعده ، ولمس جلد وجهها ، ورفع اصابعه ، ووضع يده على فمها عندما فتحت عينيها وهمس :

ــ لا تنطقي فأنت خرساء ! واسمعي فقط ! هل بينك وبين هذا الربان الهندي شيء ! هل راسلته من خلف ظهري ! هل تحبينه ! هل تحدث اليك ! تكلمي !

ورفع يده مجنونا عن فمها ، وظهر الخوف الشديد في عينيها وكادت تقول شيئا ــ لكنه اطبق بيده على فمها ... وقال بصوت هامس ، تحاصره الدموع :

ــ لا تخدعيني ايتها الصبية ! فأنا احبك واغار عليك ! ولا تتكلمي !

***

وفي اخر ايام رحلة العودة ، كانت الشمس تغطس في الافق البعيد ، وشهاب الدين مستغرق كعادته في النظر اليها والى جواره ياسمين والملاح الخبيث . وحاول الملاح الخبيث ان يتكلم فقال :

ــ ما اعجب الوان الافق !

فقال له شهاب الدين :

ــ لا تتكلم ! حتى تتم الشمس وداعها لاخر يوم لنا على سفينة الهند !

وغطست الشمس مرسلة وراءها اشعة مختلفة الالوان ، بين ثنايا الغمام الرمادي .

وجاء طير من ناحية البر ، فقال الملاح الخبيث :

ــ لقد اقتربت السفينة من مرساها .

وقال شهاب الدين :

ـ وأوشكت الرحلة على النهاية ! وسنعود بعد ساعات الى بيوتنا !

وقال الملاح الخبيث بصوت مرتفع وكأنه يريد ان يسمعه كل رجل على ظهر السفينة :

ـ وهذا الرجل المغربي سيكون ضيفي باذن الله الى ان نجد له سفينة مسافرة الى المغرب !

همس شهاب الدين ضاحكا :

ـ بالطبع .. سيكون ضيفك ولكن الى متى ! هل سنبقى بجوارها طويلا ! كم يوما تظن !

قال الملاح الخبيث :

ـ سنة ... سنتين !

وجذبه شهاب الدين وقال له :

ـ انظر جيدا الى صفحة الماء ماذا ترى فيها !

قال الملاح الخبيث ذاهلا :

ـ وماذا يمكن ان ارى في الماء غير الماء !

اجابه شهاب الدين :

ـ اتعرف لماذا لا ترى فيه شيئا ؟ لان الانسان لا يرى نفسه بعينيه .. انت وانا وكل البحارة ، هم هذا الماء وهم هذه السفينة، وهم هذا الطائر الذي يبشرنا بالعودة ، ويودعنا عند السفر ! نحن امواج هذا البحر .. وهنا مخاوفنا ، وشجاعتنا ، وحبنا العظيم ! وهنا قدرنا ... !

قال الملاح ضاحكا :

أهذا يا سيدي ما حصدته من الوقوف عشرين يوما على مقدمة السفينة اثناء هذه الرحلة !

قال شهاب الدين :

ـ كلا ...! لقد حزمت امري على شيء لا مفر منه !

ويستكون معي ... وشريكي فيما سنصنع باذن الله .

واشارت ياسمين بعينيها لشهـاب الدين ، اشارة التوسل والرجاء وكأنها تقول :

ـ لا تنتزعه مني ! ولا تبعده عني !

وفهم شهاب الدين نظرات عينيها وقال له :

ـ هي تحبك حقا ! ولكن لكل قلب نداء اقوى من كل حب ! وهذا النداء سمعته طوال هذه الرحلة ! انه اقوى من نداء بثنة الف مرة وستسمعه انت غدا او بعد غد ! وستجد انه اقوى من نداء ياسمين الف مرة !

قال الملاح الخبيـث خائفا :

ـ لا تتحدث هكذا ياسيدي !

وارتفعت ضجة البحارة والرجال ، فقد اقتربت السفينـة من مرساها ، وارتفع صوت الربان الهندي ، واختلط الصخب ، بالاضطراب ، والليل بالمشاعل ، والمسافرين بالحمالين ، وذابت ايام بلغت اكثر من عشرين يوما ماضية ... وبقي في نفس شهاب الدين هذا النداء الخفي الذي استقر بلا اهتزاز ... وعندمـا وصل الملاح الخبيث الى بيته قال لياسمين :

ـ الان اخلعي الثياب المغربية .. وتعالي الى صدر مزقتـه المخـاوف والغيرة !

ووضعت ياسمين راسها على صدره وهمست :

ـ هل ستتركني حقا بعد ايام !

ـ كـلا !

قالـت :

ـ ولكني خائفة ! فكل البحارة ينجذبون وراء هذا النـداء الخفـي !

قال الملاح الخبيـث :

اي نداء هذا الذي تتكلمين عنه !

قالت وهي تدعك رأسها على صدره :

ــ ولكني خائفــة !

قال الملاح الخبيــث :

ــ سأغرق هذه المخاوف في اقداح النبيذ !

وشرب اقداحا واقداحا .. وامتلأت اذناه بطنين غريب .. طنين كان أجش ثم استوى رفيعا .. ثم اصبح نداء غامضا ينتزع قلبه انتزاعا .... وقال الملاح الخبيث :

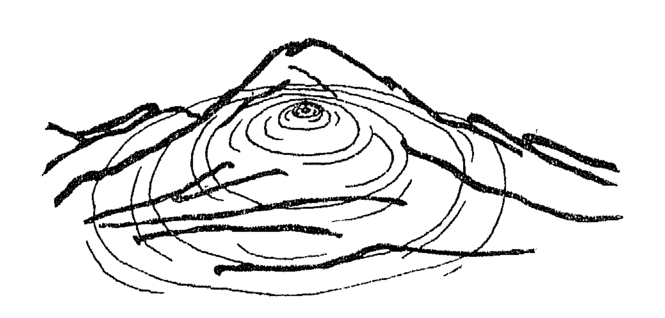
ــ الي يا ياسمين .. فقد حل بأعماقي نداء خفي يفزعنــي ويخيفني اشعلي مشاعل اخرى فأنا في حاجة الى النور !

وأضاءت ياسمين كل ركن في البيت وغسل النور كل شيء الا اعماق اعماقه التي ظلت تموج بكلمة واحدة :

ــ يا لنا وقد فارقنا الستين من اعمارنا ! نخاف كالاطفــال من هذا النداء الخفي ! اي شيء يكون هذا النداء يتموج في قلبي! .. هل هي النهاية ؟ هل هي المخاطر ! هل هو الخوف على ياسمين ! ام انه صوت اقدارنا يتموج في اعماق اعماقنا ؟



الحلقة الثالثة عشرة



جبل المغناطيس

هل تعلمنا الايام ان اوهامنا حقيقة لا نزاع فيها .. ام تعلمنا الايام ان ((الخرافات)) قد تكون اشعاعات ــ متكسرة ــ من حقائق خافية عنا ، لكن العلم سيكشف عنها ذات مرة .. ؟ واذا كشف عنها العلم فهل يستطيع الانسان ان يستغني عما يتوهمه الخيال ؟

— « لا يركب السفينة معنا إلا كل رجل طاهر .. فعندما نسافر في البحر نكون بين يدي الله الذي أجرى سفينتنا بأمره . والذي يرسيها بمشيئته .. والبحر طفل مطيع ، اذا كان البحارة رجالا مؤمنين اطهارا .. وهو مارد قتال اذا كانوا لصوصا فاسقين او كانوا مقامرين ومرتكبي ذنــوب » .

كذلك قال شهاب الدين للرجال ، الجالسين حوله في ذلك اليوم ، يسألونــه :

— متى تبدأ سفينتنا الجديدة رحلتها القادمة ؟

وعندما تفرق عنه الرجال ، مد جسمه ، في ظل قارب مرفوع فوق اعمدة قصيرة .. ووضع رأسه فوق كومة واطئة مـــن التراب ، وخطر له :

من التراب جئنا والى التراب نعود ..!

لقد اصبح شهاب الدين ، اقرب الرجال الى « الزهد » ..

وقد علمته السنون الطويلة السابقة ، ان الدنيا غانية لعوب تغوي الرجال ، فيندفعون وراءها ، ويدورون في دوائرهـا ، وهـم خـاسرون !..

فماذا اخذ هو من هذه الدنيا ، الواسعة العريضة ..؟ أهذه المخاطر والاهوال هي حصاده ؟.. أهذه الاسفار العجيبة الى اركان البر واعماق البحر هي غايته ؟ اكان شبابه مثمرا ؟ ام كانت شيخوخته نافعة ؟ أم انه عاش حتى اليوم ، يجمع الشقاء والحيره ولا يفكر في غده ، والايام التي ستواجه ابناءه السبعة ..؟ الذين اصبحوا الان شبانا وفتيانا ، وصبيا ، لامع العينين ، يقفز الذكاء من نظراته ، وتجتاحه الاحلام !

ذلك هو ابنه الصغير « محمد » الذي كـان مفتونا بالملاح الخبيث ، وكان يجلس الان كالقنفذ امام هذا الملاح الخبيث ويقول لـه :

اريد ان تصنع لي سفينة بجناحين .!

وخفض الملاح الخبيث صوته وقال :

ــ حذار .. فأبوك يريد ان ينام في وقت الظهيرة ..!

وما كان لشهاب الدين ان ينام في ذلك اليوم ، فقـد كـان مهموما ، يجيش القلق في صدره .. ويدق اعصابه دقا ..!

ولكن الصبي عاد يقول للملاح الخبيث :

اريد ان تسبح السفينة في الماء تم تطير في الهواء .

وشرع الملاح الخبيث يروي لمحمد حكايات ملفقة ، وشهاب الدين يسمع حديثه ، فيبتسم لنفسه ، ويخطر على باله :

ــ هذا هو احب الرجال الى قلبي يكذب بلا نهاية .! وهذا هو اصغر أبنائي يستعذب الكذب ويطلبه .. وخديعة كـل مـا اسمع وأرى وخديعة حياتي كلها ..

وراح الملاح الخبيث يقول لمحمد :

ـ ذات مرة كانت امواج البحر شديدة قاسية ، وكانت سفينتنا تتأرجح وتكاد تغرق فقلت لربانها : لماذا لا نركب لها جناحين ؟. ووافقني الربان على رأيي .. وشددنا جناحين على جانبيها ، وجعلنا نحرك هذين الجناحين ، كما يحرك الطائر جناحيه وذيله .. وطارت بنا السفينة فوق الماء واتجهت بنا الى الجزائر البعيدة .. ورأينا من فوقها مشاهد غريبة .. جبالا سوداء ، تقذف النار العظيمة من افواهها ..! وجبالا عالية نسحب الثلوج من الغمام .. وانهارا سريعة تسقط من الاراضي المرتفعة الى الارض الواطئة .. وانهارا اخرى تصعد من السهول الواطئة الى قمم الجبال !

وقاطعه محمد سائلا :

ـ وكيف عرفتم ان هذا النهر يسقط من اراض مرتفعة ، وان النهر الاخر يصعد من ارض واطئة ؟

وابتسم شهاب الدين في رضى لذكاء هذا الصبي الذي كان يدرب عقله على التمييز بين الاشياء .. والذي كان يقلده هو في اصغر الاشياء واكبرها ..

وقال الملاح الخبيث لمحمد :

ـ ها انت تكذبني مرة اخرى ! ولهذا السبب فلن احكى لك بقية الحكاية !..

واعتذر محمد بأنه يريد ـ فحسب ـ ان يعرف كيف يكون شكل الانهار التي تتسلق الارض العالية !

وتحاشى الملاح الخبيث الاجابة قائلا :

ـ اذن فلنعرف ان السفينة التي ركبنا لها جناحين لم تكن كهذه السفن الحقيرة التي تقف هنا في المبناء !

وسأله محمد :

ــ اكانت اعظم من السفينة الجديدة التي بناها أبي .

قال الملاح الخبيث :

ــ اعظم الف مرة !

ــ وفيها اشرعة كثيرة ؟

ــ كان فيها عشرة اشرعة كبار وعشرون شراعا صغيرا .. وكان فيها مسامير حديدية غليظة كسفينة ابي .

اجل ! وكان ذلك هو بسبب تمزيقها عندما طارت فوق جبل المغناطيس !!

واتسعت عينا الصبي الصغير ، فقد بدأ لخياله ، ان تمزيق السفينة الضخمة في الجو « شيء » هائل حقا !

وقال الملاح الخبيث :

ــ ما ان اقتربت السفينة من قمة جبل المغناطيس ، حتى طارت منها المسامير وانفصلت عنها القطع المعدنية وانجذبت هذه الاشياء ، الى الجبل . وعند ذاك ، تفسخت السفينة وسقطنا كلنا من فوق الغمام حيث كانت تطير سفينتنا .

وسأله محمد بغير قصد :

ــ وانت ايضا سقطت من فوق الغمام ..؟

ــ اقول لك سقطنا كلنا !

ــ ولم يحدث لك مكروه !

ــ لم اصب بخدش واحد لاني سقطت على شجرة غريبة .. ليست كبقية الاشجار !

ــ لا بد ان اوراقها كانت ناعمة كالحرير !

قال الملاح الخبيث :

ــ كلا .. كانت زهورها الضخمة هي التى تشبه الفراش الوثير !

وقد سقطت في قلب زهرة منهـا !

وما ان حدث ذلك حتى ضمت الزهرة اوراقها حول جسمي

وبقي رأسي وحده خارج اوراقها ! وكنت اصيح على البحارة الاخرين الذين سقطوا مثلي على الشجرة ! ولكنهم كانوا عاجزين عن الحركة .. فالاغصان ، امسكت بهم ، والزهور ، فعلت بهم ما فعلته بي .. وحرارة الشمس كانت شديدة للغاية ! وقرأنا الشهادتين وانتظرنا ان نموت اختناقا ! ثم اخذت الشمس تغيب ، واخذت الزهور والاغصان تخلي سبيلنا .. وتسللت — مع المساء — من داخل الزهرة ، واخذت اهبط شيئا فشيئا الى ان وصلت — سالما — الى الارض .

قال محمد مشفقا :

— وهل كان ابي معك ...

اجابه الملاح الخبيث في استعلاء :

— كلا .. ابوك لم يعرف مثلنا هذه الشدائد والاهوال ..

ثم اضاف :

— كم تساوي هذه الحكاية من حلوى الشام ..؟

قال محمد :

— سأحضر لك خمس قطع كبيره . فقد اهدى امير دمشق لابي صندوقا من هذه الحلوى ..

***

وكانت تلك واحدة من مجالس القصص الغريبة التي يعقدها الملاح الخبيث لابناء البحارة ، فيستمعون اليه ، وعيونهم مفتوحة تماما على وجهه ..

وكان هؤلاء الاطفال يحبونه اعظم الحب ، ويحملون اليه الهدايا ، فيصنع لهم « المراكب » واللعبة !

وقد عاد محمد يسأله في اخر الحديث :

— ومتى تصنع لي السفينة ذات الجناحين ..؟

قال الملاح الخبيث :
— بعد ستة ايام او سبعة !

***

وفي ذلك المساء ، حوم الطفل حول ابيه ، مرة ومرات . فلما سأله :
— ماذا بك هذه الليلة ؟
قال محمد :
— احب يا سيدي ان تحدثني عن جبل المغناطيس ؟
وسأله ابوه في هدوء :
— وهل تصدقني ..؟
واستغرب الصبي الصغير هذا السؤال .. وقال :
— اني اصدق مولاي دائما ..
قال شهاب الدين :
— هو جبل موجود في جزيره بعيده ، يرتفع بقمته حتى يلمس السحاب ، وتكسو جوانبه ، احجار سوداء ، وتمتد شعابه المخيفة في الماء !
وكنا نسمع عنه ونحن في مثل سنك انه يجذب السفن التي تمر قريبا منه .. وانه يسحب المسامير من اماكنها فتطير اليه ، وتلتصق به ، وقد تلتصق بسفحه الواح الخشب التي تصنع منها السفن ! وكنت قرأت في بعض الكتب القديمة ، ان هذا الجبل مزق سفنا كثيرة ، واغرق بحارة كثيرين ، فامتلأ قلبي خوفا منه ! قبل ان اراه ولكنك تعرف اننا هنا . لم نكن نستعمل مسامير الحديد في بناء سفننا .. لذلك عمدت — وانا شاب — الى ان اقود سفينتي قريبا من مكانه ! ودرت بها حول الجزيرة التي يقع فيها هذا الجبل ! ولم يسحب الجبل سفينتنا في تلك المرة !

وسالـــه محمـــد :

— وكم مرة بعد ذلك وصلت يا سيدي الى جبل المغناطيس !

— مرة او مرتين !

— ولم يمزق السفينة التي كنتم تركبونها !

— لم يحدث هذا قط !

ولكن الملاح الخبيث قال لـــي . . .

وامسك محمد عن الحديث بينما ربت ابوه على رأسه وقال لـــــه :

— لا عليك ! لقد حدثك الملاح الخبيث حديث رجل لرجـــل ! فان كان قد افشى سرا فلا تقله لي . .

وكانت « بثنة » تراقب من حيث تجلس ، ما يجـــري بـــين شهاب الدين وابنه محمد ، فلما انصرف الصبي ، قالت لزوجها :

— هذا الملاح الخبيث يفسد عقل محمد بالنوادر والحكايات !

قال شهـــاب الدين :

— لكنه بضع محمد في قلبـــه !

واعترضت بثنـــة :

— **ونوادره بذيئـــة !**

قال شهـــاب الدين :

— لا اظن انه يروي لمحمد هذه النوادر !

واضاف ضاحكـــا :

— انه يستبقيها لـــي انا !

***

ومضت الايام ، سراعا مثقلة بالهموم والمشاغل ، فشهاب الدين يزمع ان يركب سفينته الجديدة ، في اطول رحلة قام بها ، وقد اغرق نفسه ، في تجهيزها ، وتدبير امور الرجال الذيـــــن

سيسافرون معه .. ولم يبق امامه الا « همه الكبير » والـذي باح به لبثنة ذات يوم فقال :

ـ لم يبق امامي الا اختيار الرجال الذين سيذهبون معي في هذه الرحلة ذلك هو همي الكبير ...

وقالـت بثنـة :

ـ ولكنهم جميعا رجالك الذين بلوتهم وجربتهم والذيـن شاركوك الاخطار ، وجلبوا معك التجارة ، ونقلوا معك الاموال ، وخاضوا معك الاهوال فهل تفكر في اختيار غيرهم !.

قال شهاب الدين :

ـ قد اختار هذا او ذاك فقد علمني البحر .. ان اصعـب الامور ، يصبح سهلا ذلولا ، اذا وضع البحارة الايمان في قلوبهم ، والطهارة في نفوسهم وحب المعرفة في عقولهم !

وكان شهاب الدين وبثنة يجلسان في ساحة الدار تحـت السماء الصافية والليل الصامت .. وقد سرح شهاب الديـن ، بخياله وكلماته ، فكان يتحدث الى زوجته وكأنه يحاسب نفسـه ورجاله وايامه جميعا .. كان صوته يرتفع في اسى احيانا وفي لهفة احيانا .. ويضيع مع الليل .. في لحظات اخرى .

وكـان يقـول :

ـ هانذا وقد شارفت السبعين من عمري ، وخرجـت في الاسفار مع ابي منذ كنت في السابعة ، وطفـت بموانيء الارض المعروفة كلها وصحبت الرجال الطاهرين ، واللصوص والقراصنة ، وامراء البر والبحر ، وكبار التجار وكبار الصعاليك ! وقرأت في الكتب القديمة ما قرأت ونظمت اراجيز البحر ، وصنعت بيـدي ادواته وضممت اصابعي على الخناجر والسيوف ! وبعد هـذا كله .. اني اسالك انت يا بثنة ماذا يمكن ان اتركه ورائي بعـد المـوت ؟

قالت بثنة في جزع :

ـ ولماذا تتكلم هكذا وانت ذاهب في رحلة بعيدة !
لماذا تتذكر المـــوت !
قال شهـــاب الدين :
ـ من التراب جئنا واليه نعود .. ولكل اجل كتاب !
وقد احس اني اشارف النهاية . فأجمع الرجال حولي واهيب بهم ان يجتنبوا الكبائر ، وان يعكفوا على الصلاة وقد يستمعون الي صامتين ، ويطيعـــون امري يوما وايامـــــا ثم يمشي بينهم الشيطان .. فالقى الرجل منهم شجاعا صارما كالسيف ثم القاه مستخذيا ضعيفا أمام جارية عاشت حياتها كلها في الاثم !
ولكن ذلك حديث يطول يا ام البنين وقد يجب أن اسألك : اي ابنائك السبعة اقرب الى نفسك !
قالــت بثنـــة :
ـ الم تعرف بعد اى الرجال في هذا البيت اقـــرب الـــــى نفســـي !
قال شهاب الدين مبتسما :
ـ كلا ! فأبناؤك السبعة ـ فيما ارى ـ اقرب اليك مني !
و قالت بثنة ضاحكة :
ـ وتغـــار منهـــم !
فأجابها شهاب الدين :
ـ بل اخاف عليك انت من هذا العطف الشديد ! فمــــاذا ستصنعين عندما يذهب محمد معي في اسفارنا القادمة بعــــد ايــــام !
ومدت بثنة يدها ، كأنها تدفع عن نفسها شرا خطيرا وقالت :
ـ محمد ليس لك ! ولن تأخذه معك فهو طفل لا يزال !
قال شهـــاب الدين :
ـ الم يبلغ العاشرة من عمره ! لقد ركبت انا البحر مع ابي وانا اصغر من محمد !

قالت بثنة :

ـ هذا قدرك انت ! اما محمد فلن يشتغل بالملاحة !

قال شهاب الدين :

ـ لا تحسبي اخطائي على حرفة الملاحة .. فاذا كنت قد اخطأت في حق هذا البيت ، فلن يصنع محمد مثلي !

***

حقا ماذا سيترك شهاب الدين وراءه عندما يأتي يومه الموعود ؟

ان كلمة « المعرفة » كانت ترفرف في خاطره طوال سنيه الاخيرة .. فما اكثر ما سأل نفسه :

ـ هل عرفت اسرار البحر حقا !

وهل تستطيع ان تجمع ما عرفت وتتركه لابنائك ورجالك من بعد .. فأسفار البحر مليئة بالمخاطر القاتلة ... وانت ماذا صنعت حتى الان !

وغمغم شهاب الدين ـ وهو يتجه الى الجامع ليؤدي صلاة الفجر .

ـ لقد ادعو ربي سبحانه ان يهديني الى كتابة كتاب واحد ينفع كل من يركب السفن في هذه الموانىء ! فالمال يتبدد والسفن العظيمة تتمزق ، والايام نفسها تذهب ولا تعود ! ولا يبقي للرجل منا ، الا اثر نافع يجعل الاخرين يقولون عنه :

ـ انه كان كحبة الزيتون التي غرسها الزمن في ارض طيبة لتعيش مئات السنين .

ودغدغت كبرياءه كلمات اخرى يضمرها قلبه وتلك الكلمات هي « وانت يا شهاب الدين قد ملأت افواه الناس بالوصف الذي

تستحقه . فأنت اسد البحار وليث الليوث ! وربان الربابنة ..» !

***

وفي يوم ركوب الرجال السفينة الجديدة ، كان محمد اكثر الناس قلقا واضطرابا . فهو يريد ان يرى جبل المغناطيس كما وعده ابوه ، ويخاف أن يمزق هذا الجبل سفينتهم فيغرق مع رجالها !

وامه ، قد حزمت له اشياءه في لفافة صغيرة ولم تنس ان تضع سفينته اللعبة — ذات الجناحين — في هذه اللفافة .

وكان المشهد الاخير في هذا الفراق يتألف من عشرين رجلا يسيرون حول شهاب الدين في اتجاه الميناء .. ووراءهم الملاح الخبيث وياسمين ومحمد !

وعندما اخذ الرجال يصعدون الى ظهر السفينة دق الملاح الخبيث على كتف محمد وقال له ضاحكا :

— والان .. اسرع .. حتى لا يتركوك وراءهم !

وانطلق محمد يجري ، كالطائر الفرح ، فخاض الماء ، ثم امسك بأحد الحبال ، وتسلق جانب السفينة كبقية الملاحين !

اما الملاح الخبيث ، فكان يودع ياسمين بطريقته !

ويقول لها :

— اين يدك اليمنى .. ففي جيبي حفنة من الدراهم والدنانير يجب أن تملأ يديك الاثنتين ؟

واعطاها ، مع هذه الدنانير ، بخورا ، وقنينة عطر ، وقال لها :

— ستذهبين الان الى بيت ام البنين وتمكثين معها حتى نعود ! وتتعطرين في كل ليلة ، وتذكري انى انا سأشم رائحة العطر ، حيث اكون من اطراف البحر .. فأنفي هذا ، يعرف طريقه

الى عطـــرك .

وقالت ياسمين في دلالها المعتاد :

ـــ ليس هذا وقت الغزل !

ونادى شهاب الدين على الملاح الخبيث ان يصعد علــى الفور . فماذا ينتظر على الشاطىء !

ورد الملاح الخبيث انه لن يتأخر طويلا !

وعندما تحركت السفينة ، واطمأنت في طريقها الموعـــود . قال شهاب الدين للملاح الخبيث :

ـــ الذى يحيرني فبك انك لم نفقـــد حيوية الشبـــاب حتى اليوم ! كيف تطيل الوداع لهذه الجارية ياسمين ! فتشعل النار في قلبها وانت تعرف انك ستغيب عنها سنة او سنتين !

قال الملاح الخبيـــث :

ـــ هذه طريقتى ! اشغلها بنفسى ، حتى لا تنسى ، ولكنــي واثق منها ثقتي من وجود اصابعي في كفي !

فقد شكلت هذه الصبية كما اشكل العجين ! وليس في الميناء كله ، رجل مثلــى !

قال شهـــاب الدين :

ـــ بدانا الهذيان !

قال الملاح الخبيـــث :

ـــ اجل ! فنحن ـــ باذن الله ـــ سنقابل اهوالا لم تخطر لنا علــى بـــال !..

***

ومضت السفينة الكبيرة ، كعروس هائلة على صفحة الماء . يراها الملاحون في السفن الاخرى فيتحدثون عنها كما لو كانـــت عجيبة العجائب فتلك هي اول سفينة يصنعها اهل الجنوب على

غرار سفن الاعاجم ! والريح تملأ اشرعتها فتندفع كالسهم ، الى غايتها ، وشهاب الدين ، يقف في مكانه المرتفع فيرى الافق البعيد ، ولكنه يسقط — بين الحين والحين — في احلام اليقظة ! فالى اين تمضي به اسفاره ؟ والى متى يظل مسافرا على وجه الماء !

وماذا عن ابنه محمد ؟

وينظر شهاب الدين الى محمد فيجده ، صورة صغيرة منه هو ! انه يقف بجوار الملاح المكلف بالدفة كما كان يقف في طفولته ! وانه ليقفز هنا ، كالارنب البري ، وينب هناك كالمهر الصغير ، ويصدر الاوامر ، وينزل الى باطن السفينة ، ويشارك الرجال الكبار الشقاء ، ويناقشهم ، ويضحك معهم ، ويعاكس الملاح الخبيث ثم يطمئن الى جوار ابيه عند النوم ، ويستسلم وكأنه طفل رضيع !

***

وكانت السفينة قوية جبارة ، وكان رجالها ، واثقين بها .. وقد قطعت المسافات الواسعة ، بغير ان تتعرض لاذى !

وفجأة — وفي ساعات النهار الوسطى — لمح البحارة جبل المغناطيس ! واقفا كالشبح يملأ الافق !

وقالوا لشهاب الدين :

حذار ! فالسفينة تندفع الى جبل المغناطيس !

وصاح الملاح الممسك بالدفة :

— سيدي سيغرقها الجبل ! كما مزق سفنا كثيرة من قبل !

ورد شهاب الدين من مكانه المرتفع :

— اسكتوا جميعا !

— ولكنا سنغرق لا محالة !

ووثب الصبي محمد مذعورا فوقف الى جوار ابيه وسأله :

ــ احقا .. هذا هو جبل المغناطيس !

قال شهاب الدين :

ــ اجــــل !

ــ والسفينة ذاهبـــة اليه !

ــ اجل !.. ولا تخف شيئا ..

وغرقت القلوب في هذا الخوف الفظيع من جبل المغناطيس !

وترك الملاح المكلف بالدفة مكانه فأمره شهاب الدين ان يعود فيقودها الى جزيرة جبل المغناطيس !

وملأ الاستطلاع قلوب الرجال وازال الخوف ! فالبحـــارة مغامرون ، قبل أن يكونوا ارانب جبانة .. واقتربت السفينة شيئا فشيئا من شواطىء الجزيرة ! واخذ شهاب الدين يصدر الاوامر ، الى بحارته ، ويمطرهم بالشتائم ــ حين يكون لا بد من الشتائم ــ والقت السفينة مراسيها ، في المكان الذي حدده شهاب الديــن ! وانزل البحارة السنابك والقوارب الصغيرة ، وركبوها في صمت !

وتقدمهم شهاب الدين وابنه محمد والملاح الخبيث في قـــارب صغير سريع !

وبينما كانت هذه القوارب ، ترسو على الشاطىء .. التقط الملاح الخبيث انفاسه وقال ضاحكا :

ــ نجونا هذه المـــرة !

وتلك كارثــــة !

وسأله شهاب الدين :

ــ ولماذا هي كارثة !

قال الملاح الخبيـــث :

ــ لان ابنك محمدا وأنداده لن يصدقوا حكاياتي بعد اليوم .. ولن يحضروا لي حلوى دمشق !

قال شهـــاب الدين :

ــ لا عليك ! فنحن جميعا ، مساكين امام الحكايات والنوادر

وهذا هو زمن القصص الغريبة والنوادر العجيبة ، وهذا زمانك انت ايها الثعلب ! ولكن ! هيا بنا الى الشاطىء !

وعندما لمست اقدامهم ارض الجزيرة ، امسك شهاب الدين بيد ابنه محمد وقال له :

— سنقرأ الفاتحة دائما كلما ركبت البحر ، وكلما رست بك السفينة على البر .. فتلك هي اكرم بداية واكرم نهاية ... هل تسمعني جيدا ..؟

قال محمد مأخوذا :

— اريد ان اصعد جبل المغناطيس !

واجابه ابوه :

— غدا نصعد هذا الجبل الجديد ولن تجد فيه الشجرة التى حدثك عنها هذا الملاح العجوز ... مهل نصدق الان كلامى ام تراك تحب ان ترى الزهور الضخمة ايضا !

قال محمد :

— اريد ان اصعد هذا الجبل وارى بعيني اي شيء عند قمته !

واجابه ابوه :

— **وتفهم بعقلك !؟**

واني لادعو الله ان يجعل عقلك اداة عمرك ! وان يطوي ايام ابيك الباقية على الخير !

ثم ذاب كل شيء ، وانداح ، وتراجع ، عندما أخذ محمد وابوه وبعض الرجال يصعدون جبل المغناطيس ، ومحمد يمسك الاحجار بيديه ويقول :

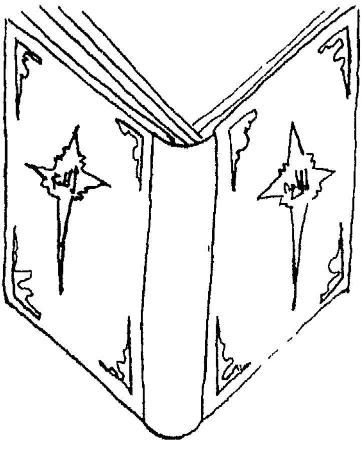
— انه جبل كبقية الجبال !

وابوه يغمغم :

— ليس هذا هو الامر المهم ! اهم من هذا ان نرى ماذا عند قمة الجبل من اشياء ؟.



الحلقة الرابعة عشرة



الفاتحة أمانة

ما اجمل وأزكى وأبقى هــذه الوصية التى همس بها شهاب الدين لزوجته : الفاتحة . امانة ..! لقد سمع الزمن كله هذه الوصية وسمعته الشواطــىء والموانــىء في بحــار الجنوب !.. واطاع الزمـــن ، والناس ، والبحار .. وهمسوا في كــل يوم الفاتحــة لشهاب الدين !..

بقي نهار واحد وليلة واحدة ، قبل ان تصل سفينة شهـــاب الدين الى ميناء الجنوب ، وترسو عند شاطىء العودة !

وقبل شروق الشمس بقليل ، احس شهاب الدين بان ابنه « محمد » قد صحا مفزعا من نومه ! فسأله :

ــ ماذا دهـــاك ؟

قـــال محمـــد :

ــ لا شيء !

لكن قلب شهاب الدين كان يحدثه بأن الصبي خائف ، فمد يده الى شمعة قريبة منه واشعلهـــا .. ولمس وجه ابنه باصابعه الحانية الرحيمة واعاد السؤال من جديد :

مـــاذا دهـــاك !؟

قـــال الصبـــي :

ـــ رايت في المنام حلما مخيفا .. افزعني وجعلني اصرخ ! فهل سمعت صرختي يا سيدي !؟

وامتدت اصابع شهاب الدين الى كتف الصبي فاذا هـــو يرتعد حقا .. فقال شهاب الدين لابنه :

ـــ استعذ بالله .. ثم قص علي خبر هذا الحلم !

وتمتم الصبي بآيات من القرآن الكريم ثم قال لابيه :

ـــ رايت فيما يرى النائم اننا واقفون فوق سطح بيتنا ـــ نحن الاخوة السبعة ـــ وسيدي الربان وامي .. وكنت يا سيدي تقف بعيدا عنا قليلا .. فلما لاح في الافق طائر « الرخ » الابيض نادتك امي ان تحذر هذا الطائر ولكنك لم تسمع نداءها ! ونزل الطائر الي حيث كنا واقفين ، فتعلقت انت بريشة كبيرة في ذيله .. وقبل ان نرتفع معه الى قبة السماء ، ناديتني ان اتعلق بريشة اخرى في ذيله .. وقد فعلت ! وطار بنا طائر الرخ الى اعلى .

وغاب عنا اهلنا وبيتنا ! ثم هاجمت « الرخ » اسراب كثيرة من الطيور الرمادية وطائر النـــار .. ذو الطـــوق الاحمر .. واحسست يا سيدي بالخوف الشديد ، وانت كذلك كنت خائفا ! ثم سقط طائر الرخ ، وسقطنا معه .. وعندما انفصلنا عنـــه .. كنت وحدي ، اطير فوق ريشة من ذيله .. واناديك !

ـــ عد الى يا ابي ؟

لكن صوتى كان كالصدى !

وارتعد جسمي فرقا وفزعا فصحوت من النوم وقد خيل الي اني اسمعتك صرختي !

واثناء هذا الحديث ، كانت كلمات الصبي ، تنشب مخالبها في قلب شهاب الدين وتزرع فيه الانقباض !

وما ان انتهى الصبي من سرد حلمه ، حتى امتدت يد شهـــاب الدين بغير ارادة منه الى القلادة المسحورة فخلعها ، وقلد الصبي

بها ، وهو يقول لــه :

ــ سنجعلك هذه القلادة مطمئنا . واذا احتجت لنجدة احد ، فاسأل القلادة ان تساعدك !

وضحك شهاب الدين ضحكات قصيره ، كانت غريبة الصوت والمعنى واضاف :

ــ لا تخف يا بني ! فطائر الرخ الذي رايته في المنام خرافة .. وليس حقيقة كما تظن . ولكن منذا حدثك عن هذا الطائر ؟ اهو الملاح الخبيــث ؟

قـــال الصبـــي :

ــ كلا .. يا سيدي .. لقد سمعـــــت الملاحين الاخرين يحدثون عن غرائب الحيوان في البر ، والبحر والجو .. وقـــد ذكروا قصة عن طائر الرخ الجبار تشبه هذا الحلم الــذي تراءى لي في المنـــام !

واجابه شهاب الدين قائلا :

ــ تلك هي المسألة ! لقد كنت تحلم بما سمعت لا اكثر والان قم الى الماء فتوضأ .. واتبعني لنقم الصلاة !

***

وبدأ النهار الاخير ، على بركة الله هادئا ساكنا ، فالامواج مطبعة ، والرياح مواتية ، وارض العودة ، ليست بعيدة ! والرجال يفكرون في لحظات اللقاء الاولى ، عندما تقترب اجسام الغائبين ، من اجسام المنتظرين . .بنات صغيرات وصبية واطفالا وزوجـــات ودائنين .. ومتسكعين !.

ثم سكتت الريح تماما ، وتجمدت حركة السفينة ، فقـــال شهاب الديــن لرجاله :

ــ القوا السلاسل الحديدية في الماء .. فسوف ننتظر حتى

تهب الرياح المواتيـــة !

وتفرق البحارة في انحاء السفينة وباطنها ، وفوق ظهرها ، يستريحون ويفكرون ، ويغمضون العيون ، ويضحكون ويتبادلون الشتائـــم !

فتلك هي ساعات الركود ، وهذه هي اضخم السفن تعود الى الميناء . بعد ان قال عنها الناس جميعا :

ــ تبارك الله !.. ما اعظم هذه السفينة واقواها ! اليست تشبه سفن الاعاجم ذات الاشرعة الكثيرة ، والمجاديف الطويلة ، والطوابق المختلفة ؟ وآلات الحرب الهائلة !..

ان شهاب الدين قد صنع ما لم يصنعه شيوخ هذه البحار من قبل ! وانه لاستاذ هذه الصناعة ! وقطبها . .واسد رجالها..!

ومضت ساعة وساعة في ركود .. ثم تحرك الركود الـــى عكسه ، عندما خطر لشهاب الدين ان يركب « قاربه » الجميل ، في نزهة حول السفينة .

وعندما انزل الرجال قاربه ، كان الملاح الخبيث يسند جسمه الى حاجز السفينة ويطل على شهاب الدين ويسأله :

ــ الا تريد نديما معك في هذه النزهة !

ولوح له شهاب الدين بيده قائلا :

ــ كلا .. اليوم لا سامر .. ولا ندامى !

واخذ شهاب الدين يدفع القارب بالمجداف مبتعدا عـــــن السفينة ، وكان في ذهنه ، ان يصل الى نقطة بعيدة ، ويخلـــع ثيابه ويسبح في الماء ، فيرطب جسمه ، ويهدهد اعصابه المشدودة منذ ان سمع ابنه محمدا يحكي حلمه المخيف !

واصبح القارب ، كالشبح الصغير البعيد ثم قفز منه شهاب الدين في الماء ، بينما اخذ الملاح الخبيث ، يرسل النكات ويـــوزع الكلمات هنا وهناك ، ويقول للصبي محمد :

ــ ابوك اقدر من اسماك البحر ! والسمك لا يغرق في الماء.

وسأله محمد خائفـا :

ــ ولماذا نشبه ابي بالسمك في هذا اليوم ؟

واستغرب الملاح الخبيث من سؤال محمد فقال :

ــ واي يوم اخر انسب من يومنا هذا ، لهذه التسمية ! بعد قليل نرسو على البر ! ونخرج كلنا الى الشاطىء !

ثم اضاف بغير سبب واضح :

ــ وكلنا اسماك ! بعضنا سمك كبير له دروع وبعضنا سمك صغير ، وبعضنا تعابين بحر ، وبعضنا خنازير ماء ، او عجـول ماء او ثيران او حيتان ! او اسماك زينة زاهية الالوان .

وغلبه الحماس قليلا فأضاف :

ــ واذا شققت السمكة فستجد في داخل رأسها خياشيم ، وفي بطنها امعاء ومعـدات ، واكياس البيض .. التـي ستصبح اسماكا صغيرة **فيما بعد !**

لكن ذلك كله هراء ! لماذا تبدو اصفر اللون ؟ هل اجهز لك شيئا مـن « الحساء » ؟

قال الصبـي ضاحكـا :

ــ اما هـذا فلا !

وعاكسه الملاح الخبيـث قائلا :

ــ ولكن اباك يعشق هذا الحساء ! فكيف ترفض ما يحبه ابـوك ؟

قال محمـد :

ــ ان توابله حريقة قاسيـة !

وكان ملاح اخر ، قد تسلق السارية ، ليصلح بعض قلاعها وكان معروفا بقوة البصر .. وكان قد بدأ يغني اغانيه الطويلـة الممدودة ، فيقاطعه البحارة الواقفون على ظهر السفينة صائحين :

ــ كف عـن هذا النبـاح !

وكان في صوت هذا البحار النباح رنين ، يشبه نباح الكلاب

المسعورة حقا !

لكن صوته تغير فجأة ، واكتسب صدى عميقا مجلجلا وهو يصرخ :

ــ النجدة ! ان الربان يصارع بسمكة كبيره !

وتسابق الرجال ، الى القوارب ثم الى الماء ، والمجاديف واندفعوا الى حيث كان شهاب الدين وقاربه !

وعندما اقتربوا منه ، شاهدوا منظرا عجيبا ! بقعة دم واسعة حول القارب .. وشيء يشبه رأس وحش بحري متداخلا مع جانب القارب ! وشهاب الدين عار تماما ، يضرب رأس الوحش « ببلطة » وكأنه يقطع جذع شجرة !

ووثب بحار او اثنان ، الى داخل قارب شهاب الدين ، وتحسس احدهم جسمه العاري ثم قال :

ــ حمدا لله ! لم يصيبك الوحش باذى !

لكن صدر شهاب الدين كان يعلو مرتعشا ، وينخفض مرتعشا ، وكانت يداه ووجهه ، وكتفاه ، تحمل اثار ضربات موجعة ، انزلها الوحش به !

وقال شهاب الدين وهو يحاول ان يتماسك :

ــ حمدا لله ! لقد ثقب هذا الوحش جانب القارب بمنقاره ! انظروا جيدا كم يشبه الحربة القوية !

ونظر الرجال الى « منقار » هذا الوحش وقد نفذ من الواح الخشب ثم تهشم تحت ضربات شهاب الدين ونقلوا شهاب الدين الى قارب اخر وسحبوا قاربه وراءهم !

وعندما عادوا الى ظهر السفينة ، كان محمد والملاح الخبيث وبقية الرجال ، قد اخذوا يتدافعون في غير اتجاه معلوم !

وكانت امواج البحر ، قد اخذت تتحرك ، والرياح قد شرعت تملأ الاشرعة وقال محمد لابيه :

ــ سلمت يا سيدي !

هل تريد قدحا من الماء !

قال شهـــاب الدين :

ــ اجل .. وأريد منكم ان ترفعــوا السلاسل ونرسلوا السفينه تجري الى مستقرها فالريح مواتية . وقد زال الخطر :

***

ومضت السفينة الى غايتها ، وراحت الشمس تهبط الــى مستقرها .. وجاء الليل ، وزادت سرعة الريح .. واقترب الملاح الخبيث من شهاب الدين وقال له في صوت واطىء :

ــ سيدي !.. أليس من الخير ان نقف حيث نحن الان .. فاني اشم بوادر عاصفة قوية !

وقال له شهاب الدين مبتسما :

ــ ومنذ متى نخاف العواصف !

ثم ضحك وربت على كتف الملاح الخبيث واضاف :

انفك هذا لا يشم جيدا الا رائحة النبيذ ! والنساء !.

اما العواصف .. فلا تصل رائحتها اليك !

والح عليه الملاح الخبيث ان يأمر شهاب الدين بانــــزال السلاسل ووقف **السفينة ..**

ولكن شهاب الدبن لم يلق بالا اليه .

وزاد هبوب الريح ، عما كان ، وزاد تلاطم الامواج ! ومعها زاد صخب البحارة ! فالبحارة ــ كالحيوانات المفترسة في الغابة ــ تشم الخطر قبل وقوعه ، وتنطلق تجري مجنونة . او تصرخ في جنون ، وكذلك صنع البحارة ! زمجرت الرياح فزمجروا .. وتلاطمت الامواج ، فتلاطمت اجسامهم .

وانفجرت العاصفة اللعينة !

وتفجرت حــول السفينة وفوقهـــا !

وانفجرت في الاشرعة والمجاديف وفي باطن السفينة .
وانفجرت في داخل كل نفس وداخل كل كومة من البضائع !
واطارت الريح ما استطاعت من اشياء !
وقذفت الامواج ما استطاعت من وابل الماء ، وسياط الماء !
واهتزت السفينة ، كما لو كانت قشه صغيرة !
وارتفعت الى اعلى ، وسقطت الى اسفل ..!
واندفعت في دوامة بلا نهاية !
دوامة ، اسقطت كل شيء من فوق ظهر السفينة ! الا بعض الرجال !
وزحف الملاح الخبيث على قدميه ويديه ، متشبثا قدر استطاعته بما صادفه من اشياء ! حتى بلغ الى مكان شهاب الدين وقال له :
— سيدي ! النجاة ! النجاة !
لكن شهاب الدين لم يكن ليسمعه .
لقد كان مستغرقا في مواجهة العاصفة ، بكل شجاعته ، وفروسيته وقد كان شجاعا فارسا حقا !
وعاد الرجال يصرخون :
— النجدة ..! النجدة ..!
وبدأت السفينة ، تدور وتدور ! وقفز البحارة ، كالاسماك الكبيرة والصغيرة !
وتعلق من استطاع منهم ، بما وصلت اليه يده !
ودوى صوت شهاب الدين عاليا قويا جبارا .
ايها الرجال لا تتركوا السفينة .
لكن احدا منهم لم يلق اليه اقل سمع !
وزحفت المياه على جوانبها والريح تصيح وتصرخ وتعربد !
وزحفت المياه الى بطنها وارتفعت كلمة واحدة بالف رنين :

ـــ النجاة ! النجـــاة !

وصرخ الذين يحبون شهاب الدين :

ـــ انج بنفسك من الهلاك !

لكنه كان قد اصبح موجة وسط هذه الامواج ، وهديرا وسط هذا الهدير ، وحركة بين تلك الدوامة ! لقد تحول الى جزء ممـــا يقع حوله وينهـــال !

وصاح ابنـــه محمد :

ـــ اقذف بنفسك الى الماء يا ابتاه !

وكان محمد قد اقترب من ابيه والتصق به لكن شهاب الدين مزق العاصفة بصوته الحاسم صارخا :

ـــ انج انت واركب قاربـــي !

والتصق شهاب الدين بمقدمة السفينة يريد ان يذهب معها الى حيث تشاء الايام ! لكن تلك الليلة كانت اكبر منه ، واضخم الف الف مرة ! وكانت قد سلبت كل الاشياء ارادتها ، وجعلتهـــا تحت رحمتها !

وشهاب الدين ليس الا بشرا .

واطبق الليل ، وجثم الفـــزع .

وانضم الخوف والليل ، وزحفا زحفا رهيبا !

وانطوى الليل ، وامتد الخوف ، واثقل في زحفه كما يشاء !

وهدأت الريح وغاضت الماء ، وارتفع صوت الغرقى !

ومات صوت الغرقى ، وارتفع نحيب ونشيج الواقفين على الشـــاطـــىء .

لقد انتهت العاصفة بأن القت الى الشـــــــاطىء بالاحياء .. وابتلعت في الماء صرعاها !

وضربت النساء على الصدور ، وبحث الابنـــاء عن الابناء والاخوة ! وقالت بثنة زوجة شهاب الدين :

ـــ الحمد لله ! لقد عادا .. عاد الرجل وعاد الابن !

وحمل اربعة رجال جسم الملاح الخبيث وقد تمزق هنا وهناك لكنه كان حيا ..!

ودار الزمن ، يوما بعد يوم ، واياما بعد ايام ! والتأمت الجراح ، وارتدت موجات البحر الى حالها الاول ، وباشرت الحياة سلطانها !

لكن شهاب الدين ، لم يحب ان يعود الى البحر ..

لقد اكتفى بان يعلم ابناءه ورجاله كيف يركبون البحر !

وتوافد عليه الرجال من كل صوب واتجاه ، وزادت قامته انحناء فقد بلغ الخامسة والسبعين مع مجيء الشتاء من ذلك العام .

واصبح شهاب الدين ، باسطا ظله على موانىء الجنوب جميعها !

يقصده الملاحون والربابنة والتجار واصحاب الحاجات ، ويستظل بظله كل من يلجأ اليه !

وكان كريم البيت ، والساحة والقلب !

***

وذات ليلة ، وضع القدر نهايته السريعة لحياة شهاب الدين .

كان قد صلى العشاء ، ومد جسمه كعادته .. واخذ يدير حبات المسبحة بين اصابعه ، وارتفع صوته باسماء الله الحسنى ، عشرة وعشرين وثلاثين فلما اتم تلاوة هذه الاسماء .. قالت له بثنة :

ــ لماذا لا تذهب الى فراشك وتتدثر بالغطاء الثقيل !

فقال في ضعف شديد :

ــ بثنة !

ورغم ضعف صوته ، فقد كـــان هذا الصوت اقوى نداء سمعته زوجته .

قالـــت خائفـــة :

ـــ سيـــدي !

وتحشرجت الكلمات بين شفتي شهـــاب الدين وهو يقول هامسا لاهثـــا :

ـــ اقرئي معي الفاتحة والشهادتين .

وامتثلت بدنة لما قال زوجها وبعد ان فرغا من التلاوة غمغم شهاب الديـــن :

ـــ والفاتحة امانـــة !

وسمع الزمن كله هذه الوصية .

وسمعته الشواطىء والموانىء في بحار الجنوب ..

ـــ الفاتحة لشهاب الدين كلما رست سفينة عند الشاطىء !

ـــ الفاتحة لاسد البحار كلما طلعت سفينة الى عرض البحر .

ـــ **الفاتحة لمن علمني** ان اصبر على البحر كلما تحدث الملاح الخبيث عـــن شهاب الدين .

الفاتحة ، ريح مقدمة طيبة اقوى من كل شيء !

والفاتحة نهاية ، لاسد الدين ، وبداية لمن جاء بعده ! رجالا وصبية شجعانا وابطالا ، يخوضون البحر ، ويمرون بميناء الجنوب ، فيبسطون ايديهم ويقرؤن بأصوات عالية فاتحة الكتاب ، لرجل تعلم من البحر ان يكون طاهرا شجاعا !

ودارت الشمس ، ودارت الارض ولم تنته التلاوة ولن تنتهى ! فأبسط حرف منها ، اخلد واعظم الـــف مرة ، حتى كل حادثة سمعناها ، وتاريخ قرأناه ، وصفحة طويناها وحياة عرفنا ايامها ولياليهـــا .



وهل يحسن بنا ، ان نقول شيئا ، ونحن نقرأ ، ما حدث لشهاب الدين لا شيء نقوله .

ان عملا واحدا هو ما ينبغي أن نكون !

ان نقرأ الفاتحة ، كلما اقتربنا من البحر .. او سافرنا على سطحه !

وان نقول لشهاب الدين .

ـ وداعا !

او نقول له :

ـ الى لقاء .

تعقيب وسطور

هذه خواطر ملأت صدري بعد ان انتهيت من كتابة هذه القصة ... فقد عايشتها كما عشت قصة ابن خلدون : رجل في القاهرة ... وانا افكر في سلوك الشخصيات الرئيسية واتصور الاطار التاريخي لها .. وامضي مع هذا التصور واضعا امام عيني ما اتيح لي من معرفة كان لا بد من الاعتماد عليها ... وذاهبا مع احداث القصة ، وتطور سلوك شخصياتها الى المدى الذي اظن انه ضروري لسلامة بنائها ، والذي اقف عنده وقد قلت ما اريد وما اتخيل من قول .

وقد يحب القارىء ان يعرف شيئا من الملامح التاريخية الثابتة التي تمثل بحارنا العربي العظيم ابن ماجد الذي يحمل لقب « اسد البحار » ويليق به ان يقف الى جوار كبار الملاحين العالميين ، اولئك الرجال الذين سافروا عبر البحار والمحيطات . فاكتشفوا ما كان مجهولا من قارات وبلدان ، ومهدوا الطريق امام انتقال هذا الكوكب من حالة الغيب المجهول الى حالة الواقع المعلوم .

ولقد ظل صراع الانسان للسيطرة على هذا الكوكب منبع

هذه المعرفة والاكتشافات العلمية الجبارة التي انتهت الى ان تجعل من كوكبنا الارضي قرية صغيرة .

ويحق لنا ، ان نقول ان امثال هذا البحار العربي العظيم ، قد شاركوا في تعبيد طرق المواصلات ، وربط اجزاء العالم بعضه ببعض .. وان معارفهم العلمية ، كانت كافية في وقتها لان يقوموا بمثل هذه الرحلات الرائدة ، وان يصنعوا منها خطوة على طريق تقريب انحاء العالم واخضاع المسافات الشاسعة ، لسيطرة الانسان .

لقد كان كبار الملاحين في زمانهم القديم ، فصيلة من كبار المغامرين .. الشجعان الذين كسروا الحدود بين ما كان مستحيلا وما كان ممكنا .

وكان لاكتشافاتهم نفس الاثر الذي نلاحظه الان ، على غزوات رواد الفضاء ... ففي الماضي كان المجهول على اليابسة والمجهول على صفحة المياه الشاسعة ، هما الهدفان اللذان ينبغي ان يبدد عنهما الملاحون ظلام الجهل .

وكانت تجربة الانسان ومعارفه بل اوهامه وتصوراته ، جزء لا يتجزأ من هذه القوة الدافعة له والمسيطرة على سلوكه .

ولقد يصنع الرجل النادر في مجال علمه وعمله شيئا يشبه المعجزة .

ويوم ان بدات اكتب هذه القصة رايت ان ابن ماجد لم يكن مغامرا محترفا ، يركب الاخطار ، في مقابل « اجر » معين ، وانما كان ابن ماجد — في تصوري — شخصية مقتحمة ، شجاعة ، ... فاذا ركب الاهوال فقد كان مهيئا لاقتحامها والسيطرة عليها ...

وخطر لي ان الحضارة العربية الاسلامية ، قد اتاحت انواعا من التربية التي كانت جديرة بأن تنجب امثال ابن ماجد من الرجال الرواد ، المقتحمين للاهوال ، الواثقين بقدرتهم على ان يصنعوا ما لم يصنعه غيرهم . وكان هذا السلوك عنده هو بداية

التصور وهو النور الاخضر الذي تمثلته وانا اكتب هذه القصة .

وكان في ذهني ، ان الحضاره العربية الاسلامية قد انجزت مجموعة كبرى من النتائج العلمية الخاصة بدراسة الفلك وطبائع البلدان ، والتاريخ ، والاسفار والرحلات وعلوم البحار ، وان الصفحات المضيئة التي اضافها اعلام هذه الحضارة ، كانت وثيقة الصلة بعضها ببعض . فكل انسان ابن زمانه وابن مكانه ...

انه ابن بيئته وثقافته ابن القيم المستقرة في مجتمعه ، وابن الموهبة المركبة في دمه . اليس من حقنا ان نرى انحاء الحياة العربية الاسلامية في كل انجاز علمي عربي كبير ؟ ثم اليس من حقنا ان نتوسم في كل عالم او اديب او مقتحم عظيم مثل ابن ماجد . « انموذجا » لعطاء تلك الحياة العربية التي امتازت بثرائها واتصال فيضها وشدة خصوبتها . اننا لا ننظر في مثل هذه القصة الى الماضي لكي يطحننا اجترار هذا الماضي . وانما نحن ننظر الى الحاضر والى المستقبل ، كلما قلنا انه كان لنا ماض انساني متحضر بديل .

فمن اجل حياة افضل ، بذل اعلام الحضارة العربية جهدهم وقدموا خلاصة اعمارهم .

ومن اجل حياة افضل ، نشكل الكلمات ، لتقول للقارىء الذي يقف على مشارف القرن الحادي والعشرين ... ان للحضارة العربية الاصيلة ، ميراثا عظيما ، يمنحها مسؤولية التقدم ... والرقي الى حيث تكون رافدا قويا من روافد الحضارة البشرية في المستقبل .

الفهرس



الخالدون العرب

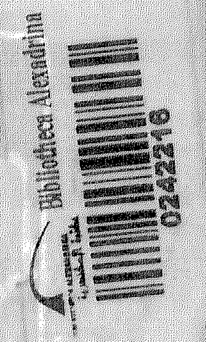
سلسلة أعلام التراث والتاريخ والفكر العربي
تصدرها « دار القدس » .
صدر منهـا :

رجل في القاهرة
ابن خلدون
رشدي صالح ٥ر٤ ل.ل.

المعتمد بن عبـاد
علـى أدهـم
٨ ل.ل.

الخالـدون العـرب
قدري حافظ طوقان
٦ ل.ل.

يصدر قريبـا :
عبد الرحمن الناصـر على أدهـم



دار القـدس
السعر : ٦ ل.ل.
أو ٥ر٧ ل.س.